

البربر

تأليف: عثمان الكعاك

أعده للنشر: تامغناست













تأليف: عثمان الكعاك

أعده للنشر: تامغناست



مستهل

هذا كتـاب صغير في موضوع كبير، وبحث قصير في مبحث طويل، ونظـرة جديدة في قضية قديمة، وبعـد فهذا تجانس على هيامبسال ملك البربر وشيخ مؤرخي الأقدمين، وعلى المطماطي كبير نسابيهم، وعلى ابن خلدون فيلسوف المؤرخين: وهذه الخطوة الجسـورة، قد خطوناها علـى حال في تواضع وبـدون كبير ادعاء، لأننا لابد أن نخطوها لتحرير الموضوع، ووضع القضية في إطارها وبيـان عناصرهـا وتلخيص فصولهـا واسـتعراض مراحلها في الزمان والمكان وتبسـيط المعرفـة عنها في ذهـن الجمهور النير، وعلـى الخصوص لرفع اللبس المتراكم عليها من صنيع مدرسـة الجزائـر التاريخية التي تلبس الحق بالباطل والباطل بالحق، والواقع إننـا نلاقي البربر في كل عصر مـن اعصار المغرب، وفي كل مصر من أمصاره، فكيـف لانؤرخهم؟ ونلاقي البربر في كل حقبة من تاريخ الإسـلام، وفي كل حادث إسلامي ذي اثر، فكيف لانؤرخهم ؟ ولعلهم اكبر الشـعوب الإسـلامية، - أو على الأقل - من اكبر الشـعوب الإسلامية التي لعبت دورا أساسيا في تاريخ الإسلام، لاسـيما في الأندلس وصقلية والمغرب وإفريقيا السوداء، وكيف

ننســى أن قبيلة كتامة البربرية قد نقلــت على كاهلها الخلافة الفاطمية إلى مصر والشام، ونشرت المذهب الشيعي في جزيرة العرب شــمالا وجنوبا وجعلت الخلافة العباســية قاب قوسين أو أدنى من هلاكها؟ ولا ينبغي أن ننســى أن الجيش اللوبي هو الذي اعتمدتــه قرطاجنة في حروبهــا وأن انتصــارات حنبل قد قامت على كاهل الفرسان الليبين والفيالين ففتح بهم اسبانيا وغاليا وايطاليــا: وأن الجيــش النوميــدي البربري والجنتــوك البربري هما اللذان ســمحا إلى جانب عظيم بإنشاء الإمبراطورية الرومانية: وأن جيــوش طــارق البربرية هي التي فتحــت الأندلس مع جيوش العــرب وأن جنود عبد الرحمن الغافقي التي فتحت فرنســا كان معظمهــا مــن البربــر، وأن دولا كثيــرة قامت على كاهــل البربر كالأمويين في الأندلس، والأدارســة بالمغرب والرســتميين بالجزائر والأغالبــة بتونــس والفاطميين بالمغرب والمشــرق؛ وأن دولا كثيرة قامت من البربر كملوك الطوائف بالأندلس والمرابطين والموحدين بالمغرب، والحماديين والزنانيين بالجزائــر، والصنهاجيين والحفصيين بتونــس، والخزرونيــين بطرابلس، ولم تقم على البربــر وللبربر دولة سياســية فقط بل قامت بهم ولهم دولة اقتصادية ودولة علوم ودولــة فنون، ولــم تقم لهم هــذه الدول في عصر مــن العصور فقــط بل في كل عصر مــن العصور، ولم تقم لهــم هذه الدول في مصر من الأمصار فقط، بل في كثير من الأمصار الإسلامية مــن الأندلــس إلــى مصر إلى قلــب إفريقيــا الســوداء، فنحن إذ نؤرخهــم نــؤرخ الجناح الســيار مــن البحر المتوســط في حوضه الغربي، ونؤرخ شــعبا حيــا متوثبا ماجدا جليــلا، إلا أننا لا نريد أن

نطمع القارئ الكريم في إطناب مسهب وإحاطة شاملة، وإنما هي نظرة خاطفة واستعراض سينمائي بهما المهم مما يجب معرفته ولا يحسن الجهل به وذلك وفاقا لبرنامج هذه السلسلة الكريمة ووقوفا عند حدود الكتابة المعينة ولم نشأ أن نجعل هذا الاستعراض جافا كالجذع المجرد من العصارة والأغصان والأوراق والأزهار، ولا بحثا مدرسيا تنزله من علو منصتنا الدراسية على قراء مستضعفين، ولا صورا تاريخية متحركة مجردة من الروح، بل حاولنا قصارى الجهد أن نجعله بحثا حيا جداليا أحيانا واستصحبنا مؤرخي العصور يصفون لنا في إيجاز أخبار هؤلاء البربر، ولا نقول إننا نجحنا في ذلك كثيرا أو قليلا أو لاشيء فالحكم في ذلك لحضرات القراء وبالله التوفيق.

عثمان الكعاك

جبل المنار

جمادى الأولى 1375

الفصل الأول

مؤرخو البربر في العصور القديمة

الشعب البربري، أو شعب أمازيغ - أي الأشراف الأحرار- نزح إلى شمال إفريقيا بعضه من أوروبا وبعضه من اليمن على طريق الحبشة ومصر وليبيا، وانتشر في ربوع المغرب وجهات من الصحراء وأطراف من مصر، واستقر بكثير من الجزائر، مثل جزائر الكناري في المحيط الأطلسي وجزر سردينيا وصقلية وقوصرة ومالطة في البحر المتوسط وكان ذلك في عصور متقادمة لا تقل عن ثلاثين قرنا قبل ميلاد المسيح.

ولهذا الشعب خصائصه الجنسية في الطول وصبغة الشعر ولون العين وشكل الجمجمة: كما له عادات خاصة به عائلية وقروية وموسمية ودينية، وله لغته البربرية المتميزة بذاتها المعروفة من قديم والمتسلسلة إلى الآن التي لها آدابها الشعبية والعلمية شفاهية وكتابية؛ وله عقائده القديمة الوثنية، وقد تتبع أديان الشعوب التي غزت بلاده لكنه استبقى في العقائد الجديدة كثيرا من عقائده أو أوهامه الوطنية القديمة؛ ولم يقنع بذلك حتى ميز نفسه بمذهب جديد في كل دين جديد اعتنقه

ليكـــون متميـــزا عن الشـــعب الفـــاتح المكتســـح ومحافظا على خصائص قومية بأي شكل من الأشـــكال. فاعتنق اليهودية في عصـــر ما. ولكنها يهوديـــة خاصة به. فما أبعد ما بين موســـوية يهـــود جربة أو يهود صفرو بالمغـــرب وغيرهم من اليهود. وكان من أســـرع الشـــعوب لاعتناق النصرانية يوم ظهرت. وابتدع لها أحد أبنائه البرابرة القديس اوغوســـتيوس مذهب الكثلكة ليتميز عن النصرانيـــة الســـلفية. فلما عمت الكثلكـــه الرومانيين الفاتحين ابتدع الدوناتوســـية وهلم جرا. وكان البربر من اســـبق الشـــعوب إلى اعتناق الإسلام. ثم كون في الإسلام مذاهب خارجية امتازت بها قبائله وصارعت من أجلها الحكم القائم. هذا الشـــعب الذي هو متدفق الحيوية مفرط النشـــاط المتميز بحب أرضه والمتفاني في خدمة تربتها. وهذا الشـــعب المتمســـك بمؤسساته القومية قد أثـــار إعجاب الباحثين منذ قديم وأدهش الناظرين من شـــعوب العالم بمـــا له من تاريخ ماجد حافل بالأعمال الجليلة. لذلك أقبل المؤرخـــون والجغرافيـــون منـــذ العصـــور القديمة علـــى البحث عن مخصصاته ومميزاته.

ولعلـــه من الخيـــر أن نســـتعرض أخبار من درس هذا الشـــعب لنعلـــم منها كيف كانت احوال البربـــر في العصور وكيف تصور الباحثون أحوال البربر من طور إلى طور فنبحث في الفصل الأول عن قدماء المؤرخين والبربر.

وفي الفصل الثاني عن ابن خلدون والبربر. وفي الفصل الثالث عن الأوروبيين والبربر.

القدماء الذيــن بحثوا عن البربر: مصريــون وبونيقيون ويونان ورومان وبربر.

المصريون:

لعل المصريين أقدم من روى لنا أخبار البربر. والأمر مفهوم فإن مــن النظريات الرائجة توجد النظرية الحامية التي تقول إن البربر من الحاميين وهؤلاء الحاميون هم المصريون الفرعونيون والحبشــة والصومال والسودانيون. فالبربر والمصريون أبناء أعمام. فلا غرابة أن يكــون المصريــون قــد اعتنوا بدرس أحــوال البربــر. ولو بمنتهى الإيجاز.

ونحن نجد في النقائش المرســومة علــى معالم المصريين من مصاطب وأهرام ومســلات. وفي الوثائق المصريــة المكتوبة على البــردي. نجد فيها جميعا معلومات عن القبائل البربرية المعاصرة للفراعنة ولاسيما من كانت منها متاخمة لمصر وببلاد برقة على الخصوص. وهذه الوثائق المنقوشــة أو المكتوبة تسمى " تاحومو " أو " ربو " ومنها " لوبو " الذي هو الاسم القديم المطلق على البربر. ومــن كلمة لوبــو جاءت لوبيا التــي حرفت إلى ليبيا. تســميهم أيضا " لشــبط " ومنها جاء اســم القبيلة البربرية اشبوســتاي عند اليونانيين. وسمتهم أيضا " بقن " و " مشوش " إلى غير ذلك. ولــم تقف هذه الوثائــق عند حد ذكر اســما ء القبائل بل تعدت ذلك إلى دراسة الخصائص البشرية والعادات والأخلاق وما يتعلق بحضــارة البربر بوجه عام. وكان هؤلاء البربر طالما حاربوا المصريين فغزوا بلاد مصر وقتلوا من قتلوا واسروا وسبوا وغنموا. وفي عهد

فرعون عصر منو فتاح تألب البربر ومن انضم إليهم من سكان الأقطار الواقعة على سواحل البحر المتوسط وأرادوا القضاء على سلطان مصر وهيمنة المصريين وانتهت هذه المشادة المسلحة بانتصار المصريين. وتظهر لنا العلاقات التي كانت قائمة في تلك العصور بين البربر والمصريين كعلاقات بين قبائل مترحلة شبيهة بالمتحضرة وأمة قد بلغت درجة راقية من الحضارة، ويفسر هذا بأن العلماء قد بحثوا حضارة المصريين ولم يبحثوا حضارة البربر، فالأمر يحتاج إلى زيادة تنقيب لنعلم بالضبط ماذا كانت حضارة البربر في تلك العصور، إذ أن نظرة عميقة في أحوال الشعبين تدلنا على مشابهة بين الحضارتين وألفة بين خصائص الأمتين. على أن الحفريات الأولى التي اجريت على حدود برقة في التخوم الليبية المصرية تدل على أن الحضارة الأولى مصدرها البربر وانتشرت منهم إلى من داناهم من المصريين. وكون البربر وقفوا في حين ما، عند مستوى معين من الحضارة بينما المصريون الذين أخذوا عنهم سبقوهم في هذا الميدان بمراحل فتفسيره أن موطن البربر ضعيف اقتصاديا وموطن المصريين قد أخصبه النيل فانبرى المصريون إلى الأمام بفضل هذا اللون من الحضارة النهرية وبقى البربر مكانهم في رمال الصحراء.

البونيقيون:

البونيقيون هم الفينيقيون الذين " تونسوا " واختلطوا بالبربر فتميزت خصائصهم الحضرية عن خصائص أجدادهم أهل صور وصيدا من مدن فينيقيا الذين أسسوا مراكز تجارية على طول السواحل الغربية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولما كانوا

عربا من بني كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العاربة القحطانية. وانتشرت الحضارة البونيقية وعمت الثقافة البونيقية البربر حتى أنهم لما أسسوا ممالك مستقلة كانت إحدى اللغتين الرسميتين هي اللغة البونيقية وبها ألف البربر تصانيفهم ولم يكن بربري مثقف لا يعرف اللغة البونيقية حتى أن الرومان لما انتصروا على البونيقيين وأخذوا قرطاجنة انتزعوا ما يوجد في المكتبات من الكتب البونيقية ووزعوها على البربر.

وأدب كل أمة هو مرآة تنعكس عليها أخلاقها ومنازعها ومطالبها. والبونيقيون أمة بحارة وتجارة وفلاحة. فمعظم تصانيفهم فلاحية ورحلات بحرية أشهرها الموسوعة الفلاحية التي ألها ماغون القرطاجني وهر أقدم موسوعة فلاحية في الدنيا ثم رحلة حنون القارة الإفريقية ورحلة عملقوا إلى سواحل أوروبا الغربية وجزائرها وخصوصها جزائر بريطانيا العظمى التي كان يذهب إليها البونيقيون لجلب معدن التصدير. وما وصلنا من الأدب البونيقي إلا هذه التصانيف وما وصلتنا من هذه التصانيف إلا نتف مبعثرة في كتب اليونان والرومان. ونعرف من هذه النتف على قلتها بعض أحوال البربر العائشين بالمغرب الأقصى على سواحل المحيط الأطلسي وضفاف نهر النيجر ولاشك أن البونيقيين ألفوا أكثر من ذلك بكثير. ولاشك أيضا أنهم اعتنوا بتاريخ البربر ووصف أحوالهم لأنهم كانوا يعرفون عن كثب. وشيء آخر هو أن البونيقيين قد استهلنوا في آخر مدتهم إذ تأثروا بالحضارة الهلنية اليونانية وصارت قرطاجنة مثل أثينا والإسكندرية وقريني وشرشار مركزا للحضارة اليونانية وبها

في الأن الواحد جالية يونانية منتجة كما بها ارسطوقراطية بونيقية نيرة متأثرة إلى أبعد حد بالثقافة اليونانية. فكان مؤرخا حنبل يونانيين وكانت النساء البونيقيات أنفسهن متضلعات في الأدب والفنون الإغريقية، وسنتحدث عن مؤرخي اليونان بقرطاجنة في مبحث بعد هذا، وقلنا من جهة أخرى إن البربر المثقفين الذين ظهروا في القرن الثاني قبل الميلاد والذين سعوا إلى استقلال بلادهم وبناء إمبراطوريتهم كانوا يحررون تصانيفهم التاريخية وغيرها باللغة البونيقية في الغالب. وسنولي الحديث عنهم في مبحث يأتي إن شاء الله تعالى.

وبالجملة فما كتبه البونيقيون عن البربر لابد أن يكون كثيرا وعميقا ومستوعبا إلا أن ما وصلنا منه هو النزر القليل لضياع المكتبات البونيقية وإحراق الرومان لتلك التصانيف العلمية وذلك أحد آثار الرومانيين التاريخية التي لا تماثلها وحشية وجناية على العلم البشرى.

المؤرخون اليونانيون:

ابتدأ المصريون البحث عن تاريخ البربر منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وابتدأ البونيقيون البحث عنهم ابتداء من القرن السابع. وابتدأ ذلك اليونان ابتداء من القرن السادس.

واليونان الذين درسوا البربر إما الأصليون من بلاد اليونان أصالة، أو من الجالية اليونانية بمدينة قرطاجنة أو من الجالية اليونانية بمدينة قريني في ليبيا. أو من البربر المستهلين الذين كتبوا باليونانية وهذا الصنف سندرسه في مبحث آخر، وبالجملة

فمؤرخو اليونان وعلماء الجغرافية منهم هم أدق القدماء وأوسعهم دراسة لأحوال البربر كما سنرى.

هيقاطوس:

يظهر أن أول من كتب عن البربر من مؤرخي اليونان وجغرافييهم هو هيقاطوس الذي ألف في آخر القرن السادس أو أوائل الخامس مصنفا جغرافيا يتألف من قسمين: قسم يتعلق بأوروبا، وقسم يتعلق بآسيا، وقد أردف القسم الأسيوي بفذلكه عن جغرافية لوبيا أو بلاد البربر، وقد سافر هيقاطوس كثيرا وزار مصر وأقام بها واستفاد من أهلها كثيرا عن أحوال البربر، وقد ضاع كتابه ولم يبق منه فيما يخص البربر إلا نحو 30 نبذة تتعلق في الغالب بأسماء مدن أو جزائر لم يقع على الأكثر تعيينها وتحقيق هويتها، وما وصلنا من تصنيف هيقاطوس لا يفيدنا عن أصل البربر أو عاداتهم أو أسماء

قبائلهم أو أنسابهم، ومع ذلك فكتابه هو الذي عول عليه هيرودوتس أو -على الأقل- عول على الكثير منه في تصنيف ما كتبه " أبو التاريخ " عن البربر، وأثبت الباحثون أن ما اقتبسه هيرودوتس عن هيقاطوس هو من الأهمية بمكان.

هيرودوتس:

شيخ المؤرخين اليونانيين، أو شيخ التاريخ على الإطلاق كما ينعت عادة _هو هيرودوتس الذي ولد ببلاد الإغريق سنة 484قبل الميلاد أي في عصر ازدهار الحضارة البونيقية بتونس _ وقد زار هيرودوتس مدينة قيرني -الشحات بولاية برقة في

ليبيا- سنة 455ق م. وأخذ من أهل قريني الذي هم أكثرية بربرية وأقليــة يونانية وبونيقية وثائق دقيقــة ومعلومات صحيحة جدا عن ســكان الشــمال الشــرقي من أهل المغرب. فقسم السكان الأصليين إلى اتوبيين ولوبيين. وبين لنا منازل هؤلاء اللوبيين (البربر القدماء) ودرس بعض عاداتهم. إلا أنه من الصعوبة بمكان إيجاد أوجه الشــبه في أســماء القبائــل التي أوردهــا هيرودوتس والتي أوردها ابن خلدون.

يقــول هيرودوتــس إن القبائل اللوبية التي تســكن بلاد مرمر يقاينــي مصــر وبرقــة جنــوب مدينة قريني تســمى "اســبوط" وتتاخمها في الغرب منها نحو الصحراء قبائل أوســخير وقابالة وتوجــد بجهة فــزان قبائل الغرامانــت. وأنت على طول ســاحل الســرت فقبيلة ناســامون الكبرى. وبــين خليج الســرت الكبير وخليج الســرت الصغير (خليج قابس) ضربت قبائل ماغ أومالك ثــم قبائــل غندانة ولعلهــا جدالة التــي ذكرها ابن خلــدون وأما جربة الســواحل المقابلة لها فقد اســتوطنتها قبائل اللة النبق " لوطوفــاج " الشــاعر اليوناني الكبير هوميــروس في ملحمته الأوديسة. (التي ترجمها البستاني إلى العربية أبدع ترجمة).

ويســكن الساحل الشــرقي التونســي بين جربة ونهر مجردة قبائــل " ما خلــوه " ويســميهم الجغرافي اليونانــي بطليموس " ماخونه " ونرى في هذه التســمية مشــابهة بمازيغ فلفظة ماخ أومــاغ أو مالك أو مــاق أو ماس بالبربرية القديمــة معناها الكبير أو الشــريف. ويصح أن تكون لفظة ماخونــة هي مازونة البربرية وهي اسم قبيلة مشهورة ما تزال بعض أفخاذها ضاربة بالوسط

الجنوبي التونسي.

وأما في شمال مجردة فالناحية الشرقية بين ماطر وخليج تونس يسكنها الأوسة وهي الإقليم الذي يسميه ابن خلدون سطفورة فإذا اعتبرنا " أو " بمعنى " أولاد " فيمكن تفسير أوسية باولادسية أو أولادسوة على اختلاف النطق مع زيادة فوره التي لا ندري معناها بالبربرية فتكون سطفورة أو " سوه " أو " سوط " مع حذف " فورة " ضاربة بهذه الجهة من عهد هيرودوتس أي من القرن الخامس قبل الميلاد.

أما في الشمال الغربي من نهر مجردة في بلاد خمير ونفرة ومقعد الأن فتوجد قبائل ماكوة. ولعلها هي غير مقعد.

وتوجد بعد ماكوة قبائل زواقة أو زواغة أر زوارة وهي زوارة من ناحية وزاواوة من ناحية أخرى. فيظهر من هذا أن مقعد وزوارة وزواوة مازالت بعين مواطنها من عهد هيرودوتس إلى الأن.

ويبين لنا المؤرخ اليوناني هيرودوتس أن البربر ينقسمون إلى فريقين. فمن كان منهم بتونس أي بالمغرب الأدنى فهو مترحل. ومن كان منهم بالغرب الأوسط فهو يسكن السهول يحرث فيها ويفلح ويسكن الجبال التي تعمر الغابات. وقد بين لنا هيرودوتس أن سكان الجزائر من البربر هم الجيتوليون أي الذين سماهم العرب فيما بعد جدالة وغزولة وجزولة وفزولة. واما سكان الغرب الأقصى فهم الفاروزيون.

ودرس هيرودوتس عادات البربر في الأكل والشرب واللباس والمواسم فأعلمنا أن النسوة البربريات يزغردن ويولولن وتعجب

من هذه العادة التي لم يكن يعرفها وأنهن يوشمن ويتخضبن وبين لنا حتى عادات البربر في المدافن.

ونحن سنقتبس في عين هذا الموضوع من هيرودوتس مقتبسات تبين لنا أن هذا المؤرخ عرف البربر عن كثب.

سيلاكس ورحلته:

ألف البحار اليوناني سيلاكس رحلته في القرن الرابع قبل الميلاد. فوصف لنا سواحل افريقية والغرب وسواحل مراكش على المحيط الأطلسي ويعتمد سيلاكس في رحلته التي دونها على مشاهداته الخاصة ولكنه يعول أيضا على رحالين يونانيين قد سبقوا عهد هيرودوتس.

ديودورس الصقلي:

ومن المؤرخين اليونانيين الذين اعتنوا بالتحدث عن البربر ديودورس الصقلي المؤرخ اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الأول قبل المسيح في عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس وألف مكتبة تاريخية ثمينة جدا هي عبارة عن تاريخ العالم من الأول إلى سنة 60 ق. م. وفيما يخص موضوعنا تحدث ديودورس خاصة عن زحفة اغاثوفليس الصقلي الذي هاجم الوطن القبلي (جزيرة أبي شريك) في القرن الرابع قبل الميلاد وحاول افتكاك البلاد من القرطاجيين وهو الذي بني مدينة قليبية. نقل لنا ديودروس أخبار هذه الزحفة اعتمادا على المؤرخ اليوناني دوريس الذي كان معاصرا لها غير أن حديثه قليل العناية بالبربر مباشرة لانصراف السياق إلى ذكر أطوار الحرب وإفاضة الحديث عن اليونانيين والقرطاجيين.

ومع ذلك فالمدقق يستطيع أن يجتني منه بعض الثمار.

ايراتوشينس الجغرافي:

رياضي وفلكي وفيلسوف وجغرافي كبير منسوب إلى مدرسة الإسكندرية اليونانية المشهورة في العصور القديمة بمكتبتها ومذاهبها التعليمية إلا انه في الحقيقة ابن مدينة قريني (الشحات) الليبية التي كانت عاصمة ثقافية يومئذ. فهذا مؤلف مواطن للبربر وابن بلدتهم فلعله من اعرف الناس بهم. وهو معجزة القطر الليبي في العصور القديمة. كتب ايراتوشنيس موسوعة جغرافية كبرى في الثلث الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد. فهو يعرف البلاد إلا أنه يشتكي من أن القرطاجيين لا يسمحون بدخول قسمها الشمالي والغربي بسهولة. وقد اعتمد في تصنيف هذا الجزء من كتابه على رحلة حنون القرطاجني وعلى تصنيف مواطنه اوفيلاس القريناوي هذا علاوة عن مشاهداته وانطباعاته الخاصة. ومن سوء الحظ أن هذا التصنيف قد ضاع إلا بعض نتف منه جمعها البحاثة الألماني برفر ونشرها بمدينة لبسيك سنة 1880.

اوفيلاس القريناي:

أصله من مقدونيا وهو احد رفقاء الاسكندر الأكبر. ثم صار عضدا لملك مصر بطليموس فغزا قرينا سنة 323ق. م. وصار عاهل برقة وصاحب السيادة فيها. وعقد اتفاقا مع اغاثوفليس السرقوسي لافتكاك قرطاجة. والذي يهمنا منه هاهنا انه جمع وثائق وأخبار عن بلاد البربر تحدث فيها أصالة فتوحاته وفتوحات

زميله اغاثوفليس ووضع رحلة وصف فيها سواحل ليبيا.

بوليس

هو أحد مؤرخي اليونان الكبار ولد بمدينة ميغالوبوليس في ولاية اركادية من بلاد الاغريق سنة 205 ق. م. وتوفي 125 ق. م. وأرسل كرهينة إلى رومة سنة 128 فقضى بها 12 سنة وقد ألف تاريخه الكبير في 40عاما لم يبق منه إلا خمسة كتب كاملة ونتف من البقية ويعتبر هذا التصنيف من أهم المصنفات التاريخية في العصور القديمة. وفي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد رافق بوليس القائد الروماني شيبون الاميلي أولا في مهمة سريعة لدى الملك البربري ماسنيسيا ثم طيلة عدة أشهر في الحرب البونيقية الثالثة فمكنه ذلك من ملاحظة الرجال والأشياء والحوادث وتسجيل ما أراد تسجيله وأتيح له أن يستخبر البربر ويجمع أخبارهم وطالما جرت له أحاديث وانعقدت له مجالس مع الملكين البربريين ماسينيسا وغولوسا. فسجل ذكرياته في الكتاب التاسع من تصنيفه الكبير. وعلاوة عن ذلك فقد اعتمد بوليس في أخبار الحروب البونيقية على ما كتبه المؤرخ اليوناني فلينوس. هذا علاوة عن ملاحظاته الخاصة المباشرة.

على أن المؤرخين اليونانيين إذ أطنبوا في أخبار الحروب البونيقية فإنهم شحوا بأخبار البربر. فإذا كانت أخبار تلك الحروب مناسبة طيبة لنا لنتبين على نورها أحوال البربر في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد فما ذلك النور إلا بصيص ضئيل أتى بعد ليل حالك. فلسنا نجد في هذه الكتب عرضا منسجما واضحا عن

النظام السياسي والاجتماعي عند البربر ولا بيانا لحضارتهم فلا يهتم بهم المؤرخون إلا من حيث ما ساهموا به من نصيب في الحروب الكبرى التي دارت رحاها بين قرطاجنة وورومه.

ارتيميدورس الرهاوي:

هو أحد الجغرافيين اليونانيين المشاهير عاش على رأس القرن الأول قبل المسيح. واشتهر في بلده اشتهارا كبيرا ونال حظوة كبرى وثروة طائلة ثم زار ايطاليا وأقام قنصلا برومة وزار اسبانيا وسواحل المحيط الأطلسي الأوروبية ثم شمال إفريقيا ومصر. وكان عالما جغرافيا قوي الملاحظة كثير الترحال والتطواف وقد طالع تصانيف من سبق من الجغرافيين والمؤرخين اليونانيين نخص بالذكر منهم تيموستينوس وايراستينس واغاترخيدس وبوليبيوس. ألف " رحلة مطولة " جعلها شبه موسوعة جغرافية حشر إليها ما سبقه به غيره من العلماء إلا أنه امتاز بدقة الوصف والعناية بيان نظام الحكومات وأحوال الشعوب وقد أفاض في وصف سواحل البحر المتوسط بكل تفصيل ويشتمل كتابه هذا على 11 سفرا جعل السفر السابع منها في وصف أحوال بلاد البربر. وقد ضاع هذا الكتاب الثمين وإنما نقل عنه استرابون نتفا بقيت لنا وهي من الأهمية بمكان. إلا أن ضياع هذا المصنف يحرمنا من الحكم له أو عليه وتبين قيمته بالإضافة إلى تنوير الحوالك من تاريخ البربر.

بورسيديونس الافامي:

هو أحد المفكرين والعلماء اليونانيين المولودين بسوريا ولد

حوالي 135 ق.م. وعاش 84سنة ومات في منتصف القرن الأول وقد ذهب إلى مدينة قادس باسبانيا للقيام ببحوث ودراسات علمية. وانتقل من هناك إلى إيطاليا فالتقت الرياح بالسفينة على السواحل المغربية. فاضطر لزيارة هذه الديار. وتحدث عنها في كتابين من تصانيفه احدهما أحوال المحيط والأخر كتاب التاريخ. وكتاب التاريخ يمتد من سنة 144 إلى سنة 78ق.م. وقد أسهب فيه عن أحوال الجغرافيا والتاريخ الطبيعي وطبقات الأمم وعاداتها. وهو من أهم الأمور لمعرفة أخبار البربر. يذكرها في الغالب استطرادا عند الحديث عن حروب يوغورطة وحروب بومبيوس مع يوليوس قيصر وعلاوة عما عرفه بنفسه عن البلاد فانه قد اقتبس معلومات استمدها من أصدقائه بروما أو من أهل قادس الذين زاروا موريطانيا.

ولقد ضاع كتاب التاريخ إلا أن ما يحتوي عليه من معلومات عن البربر قد نقله عنه مؤرخان كبيران احدهما سالسطس الروماني والثاني استرابون اليوناني. وسنهمل الحديث عن الأول مؤقتا ريثما ننتقل إلى ذكر من تصدى لكتابة تاريخ البربر من اللاتينيين.

استرابون:

ولد بمدينة اماسيه بقابذوفيا نحو سنة 50ق.م. ومات سنة 65 بعد الميلاد. وألف كتاب الجغرافيا الكبير وجعل القسم الأخير منه في وصف إفريقيا الشمالية وقد درس هذا المبحث العلامة الألماني شترنفر في كتاب سماه استرابون ودراسته لجغرافيا ليبيا

ونشره ببرلين بالألمانية سنة 1913.

ومن حظنا أن بقي لنا هذا الكتاب وإن كان فقير المادة فهو قصير فوق اللازم مشوش الترتيب لا يخلو من أغلاط مادية. فيذكر مثلا أن العاهل البربري آذر بعل حوصر بمدينة اوتيكه مع أنه حوصر في قرطة (قسنطينة) وهذا عجيب من مؤرخ كتب تاريخ حروب يوغورطه ضد آذر بعل ولعل الغلط صادر من ناسخ -والنساخ مساخ- ويقول إن جزيرة قوصرة واقعة وسط خليج قرطاجنة، وقد التبست عليه بجزيرة الجامور، ثم هو يذكر بعد ذلك قوصرة فيضعها في مكانها إزاء قليبية.

ولعل هذا القصر الفاحش في القسم المتعلق بالمغرب متأت من أن استرابون أراد أن يفرغ من تصنيفه على عجل. وان أخبار المغرب ليست من الأهمية في نظره بحيث تستغرق قسما مهما من الكتاب، وإذا استثنينا قرطاجنة فإن بقية بلاد المغرب لم تقم بأي دور في نمو الحضارة وازدهارها -هذا على رأي استرابون-. وهو أنما وضع كتابه ليكون درسا لرجال السياسة وتفسير للحوادث التاريخية الكبرى التي كان العالم القديم مسرحا لها. فالمغرب لا شأن له في هذا الموضوع - على رأي استرابون طبعا لكي يفرد بمطولات الدراسات، أضف إلى ذلك أنه لم يزر بلاد البربر وإنما يتحدث عنها بالنقل عن غيره.

ومهما كان من الأمر فإن استرابون يفيدنا كثيرا عن الإمبراطوريات البربرية التي ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد مثل ملك يوبا الأول ويوبا الثاني ويوغورطه وغيرهم من كبار

ملوك البربر.

وألــف اســترابون أيضــا كتاب فــي التاريــخ يبدأ ســنة 144. وينتهي سنة 27 واعتمد في كتابه التاريخي على المؤرخ الروماني تانوســيوس الذي ألف حوليات على عهــد يوليوس قيصر. وعلى المؤرخ اليوناني ابسيقراط. ويظهر أنه لم يعتمد على كتاب حروب يوغورطه الذي ألفه المؤرخ الروماني سالســطس. ولا على كتاب حــروب إفريقيا الذي ألفه يوليوس قيصر نفســه وذكر فيه حروبه بإفريقيا ولا ســيما معاركه مع بومبيوس وقد اعترف اســترابون بنفسه بجهل المؤرخين القدماء بأحوال البربر إذ قال: "أن معظم الشــعوب التي تســكن ليبيا (بلاد البربر) مجهولــة الأمر. فجزء قليل فقط من هذه الأصقاع قد زارته الجنود أو الرحالون الأجانب. وأما الأهالي مــن البربر فقليل منهم من زاروا أقطارنا وعلاوة عن ذلك فهم لا يريدون أن ينقلوا لنا كل شــيء عن أخبار بلادهم وإلا نكن من ذلك أنه لا يمكن الاعتماد على ما هم ذاكرون".

قاليماخس القريناوي:

هذا الشــاعر. هو أشهر ممثل للشــعر اليوناني ومعرفة اللغة اليونانية بمدينة قريني ومدينة الإسكندرية ولد في القرن الثالث بمدينــة قرينــي ودرس بهــا الآداب اليونانيــة ثم انتقــل إلى أثينة عاصمــة العالم الإغريقــي. وأقام مدة بالإســكندرية وألف عدة تأليف شــعرية ونثرية من جملتها أنشــودة مطولة لابولو يقول فيها:

".. والرجال يرقصون مع الليبيات الزعراوات.."

مما يثبت أن سكان برقة من البربر يومئذ الذين ينتسبون إلى قبيلة الأسبوست كانوا زعرا. ومما يفسر لنا وجود الزعرة عند بعض القبائل البربرية.

نيقولاس الدمشقي:

عاش نيقولاس في القرن الثاني قبل الميلاد على عهد الملك البربري يوبا الثاني، وكتب في كل فن ومن أعجب كتبه تصنيفه ديوان الأخلاق العجيبة والعادات الغريبة وقد خص فيه البربر بمكان لائق وقد بقيت لنا من ذلك نتف ذكرها صاحب المجموعة المسماة صغار مؤرخي اليونان وهي محتوى الجزء الثالث من الصحيفة 362 إلى الصحيفة 436.

الليبيقيات:

إلا أن اليونان اعتنوا بتصنيف كتب سموها ليبيقيات أي دراسات ليبية أو بربرية، ونحن لا نعرف عن هذه التصانيف إلا ما قل، ويظهر أنها تأليف وضعها أصحابها بالنقل عن مصادر أخرى تختلف صحة وضعفا. وهي في الغالب من نوع التصانيف الاغترابية التي تحكي نوادر الشعوب للمتعة والاستغراب والتشويق لا للفائدة العلمية.

وإليك أهم هذه التصانيف الليبيقيات:

أ - ليبيقالوقوس الغجيوني من أهل القرن الرابع وهو قد صنف كتابا في تاريخ ليبيا (انظر نتف التاريخ اليوناني 260 ص 373).

ب - ليبيقا في ثلاثة أسفار ألفها اغرويطاس القريناوي من أهل برقة كان يعيش في القرن الثالث قبل الميلاد وتاريخه اسطوري ميثولوجي ويعني ميلاد برقة وما جاورها من الجهات.

ج - ليبيقا في ثلاثة أسفار على الأقل منسوبة إلى هيسياناقس الذي كان يعيش في أوائل القرن الثاني ق. م.

د - ليبيقا من وضع بوسيذيونوس الالبى من أهل القرن الثاني أيضا.

هـ - ليبيقات في ثلاثة أسفار على الأقل تأليف الاسكندر بوليهستور الذي ألف تصنيفه بإيطاليا في القرن الأول قبل الميلاد.

و - ليبيقا شارون القرطاجي وهو رجل كان يعيش بقرطاجنة البونيقية أو قرطاجنة الرومانية في عصر مجهول وألف تصنيفا في مشاهير الرجال والنساء ورحلة في البحر الأطلسي فيما وراء أعمدة هرقليس (جبل طارق).

هؤلاء هم أشهر اليونانيين من جغرافيين ومؤرخين الذين اعتنوا بدراسة البربر بخطوط مختلفة. وقد نستغرب كثرتهم كما نستغرب قلة الجدوى من تصانيفهم التي لم تبلغنا منها إلا نتف في الغالب.

ونستطيع أن نقسم هؤلاء اليونانيين إلى ثلاثة أقسام:

أ - القسم الأول: اليونانيون الذين كانوا يعيشون بقرطاجنة البونيقية وكانوا يؤلفون باليونانية لقراء بونيقيين منهم

فيلينوس الجرتنتي (من صقلية) الذي ألف تاريخ الحرب البونيقية الأولى وقد مال في تاريخه إلى القرطاجيين ضد الرومانوسوسيلوس ورفيقه سينوس اللذان كانا يرافقان القائد الكبير حنبل وقد وضعا تصانيف في ترجمته. ولكن الفلسفة شاعت بقرطاجنة وقد "تهلنت " الأرسطوقراطية وتأثرت بالحضارة الهلينية اليونانية وبآداب اليونان وعم ذلك الرجال والنساء حتى لقد كانت وسوفونيسيه الشهيرة متبحرة في آداب اليونان وفنونهم الموسيقية.

ب - القسم الثاني: اليونانيون الذين كانوا يعيشون بقرينا عاصمة بلاد ليبيا يومئذ. وقد كانت قرينا عاصمة من عواصم الحضارة اليونانية مثل أثينا والإسكندرية وشرشال بالجزائر وقرطاجنة إلى حد ما. فهؤلاء المؤرخون القريناويون هم أبناء البربرية العارفين بأحوالها.

ج - القسم الثالث: ويشمل المؤرخين والجغرافيين اليونانيين الأصليين أو الذين هم من بلاد الشرق اليونانية أو المتهلنة أي المتأثرة باليونان.

ونستطيع أن نضيف إلى هذه الأقسام الثلاثة أهل مدينة شرشال بالجزائر التي كانت عاصمة للحضارة اليونانية لاسيما على عهد الملك المستهلن يوبا الثاني. إلا أننا نؤثر أن نذكر يوبا الثاني في قسم الأدباء من ملوك البربر في عهد استقلاله.

4. المؤلفون الرومانيون

فتح الرومان قرطاجنة سنة 146 قبل الميلاد، ودام حكمهم

فيها إلى سنة 698 بعد الميلاد. على أنهم عرفوا البربر والقرطاجنيين في السلم والحرب منذ القرن السابع ق. م. فلابد أن تشوفهم العلمي ومصالح استخباراتهم قد دفعتهم إلى معرفة أحوال هؤلاء البربر. وها نحن نستعرض أهم المؤرخين الرومانيين الذين درسوا البربر :

سالسطيوس:

هو مؤرخ روماني ولد سنه 86 ق. م. ومات سنة 30م. والمهم هو أنه تولى ولاية إفريقيا الرومانية من سنه 45 إلى سنة 46. إلى عام 45 فهو قد عرف البلاد مباشرة وعاش في عمر قريب جدا من عهد الفتح الروماني (146 ق. م.) وعهد حروب يوغورطة العاهل البربري وألف كتاب حروب يوغورطة وذكر فيه أصل البربر ونقل لنا كثيرا من أخبارهم وعاداتهم. ولم يقتصر سالسطيوس على معارفه الشخصية ومشاهداته ومروياته، بل اعتمد أيضا على من تقدمه من المؤرخين اليونانيين وبخاصة بوزيدونيوس.

وصف لنا سالسطيوس البلاد البربرية فقال: " إن الموضوع الذي سأطرقه يتطلب مني أن أقول كليمات عن موضوع إفريقيا وعن الشعوب التي اتصلنا بها فيها من طريق الحرب أو الحلف. وأما الأقطار والشعوب التي جعلها إقليمها المحرق أو جبالها المنيعة أو صحاريها المنقطعة عسيرة الوصول فيظهر لي أنه يتعذر أن اروي في شأنها أخبارا محققة مدققة: على أني -مهما كان - سأروي من ذلك ما قل أتحدث عن البقية في إيجاز... إن بحر إفريقيا كثير الزوابع وسواحلها قليلة المراسي وأرضها خصبة من

الحبوب غنية من المروج. قليلة الأشـجار، ومياهها وعيونها قليلة، ورجالها أقوياء خفاف في السباق أصحاب كد وجد في العمل..... وأقدم سكان إفريقيا من البربر هم الجيتوك بجدالة، غازولة، قزولة، جزولة... إلخ) واللوبيون : وهم شعوب نفورة مخشوشنة يأكلون لحوم الوحوش ويرعون العشب مثل القطعان. ولا يعرفون قيدا أخلاقيا ولا وازعا قانونيا ولا سلطة أمير؛ وليست لهم منازل قارة فهم يسيحون في الأرض على العمياء مغامرين حتى إذا ما جنهم الليل أووا إلى حيث أمكن. وعندما هلك البطل اليوناني هيرقليس، الذي مات باسبانيا حسب الرأي الشائع عند الإفريقيين، انتشر جيشه شذر مذر، وهو جيش مركب من رجال ينتسبون إلى جميع الأمم وتنازح الرئاسة عليه عشرون منازع. فتفرقت تلك الجموح في الأرض ايدي سبا. فأما الماديون والفرس والأرمن فانتقلوا إلى إفريقيا على سفنهم واحتلوا الأصقاع القريبة من البحر المتوسط. وزاد الفرس اقترابا من المحيط واتخذوا الأكواخ من سفنهم التي قلبوها على الأرض، لأن البلاد خالية من مواد الخشب، واسبانيا بعيدة عنهم كثيرا فلم يتيسر لهم جلبه من اسبانيا لا شراء ولا مقايضة لأن مسافة البحر وجهل اللغة يمنعان كل معاملة تجارية، ثم أن الفرس اختلطوا بالجيتوليين بواسطة الزواج، ولما كانوا كثيري الترحال فطالما تحولوا من منزل إلى منزل ومن محلة إلى محلة فسموا أنفسهم النوميديين أي المترحلين. واما الماديون والأرمن فقد انضموا إلى اللوبيين لأن هؤلاء أقرب إلى بحر افريقيا من الجيتوليين الذين كانوا يعيشون تحت قرص الشمس في منطقة محرقة وما لبثوا أن حلوا المدن

إذ لم يفصلهم عن اسبانيا إلا مضيق. فسرعان ما استقرت العلاقات التجارية بينهم وبين تلك البلاد.

ثم أن اللوبيين حرفوا رويدا رويدا كلمة ماديين فقالوا موريين.

وأخبرنا سالسطيوس في شيء من الأطنان عن ملوك البربر حال استقلاقهم خلال الحرب البونيقية الثانية فقال: " خلال الحرب البونيقية الثانية بينما كان القائد القرطاجني حنبل يلحق الضيم بمجد الاسم الروماني ويطعن الطعنات القاسية سلطات إيطاليا كان ماسينيسا ملك النوميديين من البربر الذي جعله القائد الروماني شيبون الإفريقي حليفا لنا فخدم قضيتنا باعتزام وأبلى البلاء الحسن. وأراد الشعب الروماني أن يجازي ماسينيسا عن حسن فعله فبعد الانتصار على القرطاجنين واستاسار الملك البربري سفاكس كانت له بإفريقيا مملكة مترامية الأطراف قوية الشوكة. أعطى الملك ماسينيسا جميع المدن والأراضي التي وقع فتحها. وبقي هذا العاهل البربري معنا على العهد مراعيا ألفاظ حلف نافع ومشرف. ولم ينته ملكه إلا بوفاته فلما هلك ورث ابنه ميسينيسيا وحده ملكه وسلطانه إذ قد كان المرض قد قضى على غولوسا وماناسطبعل ابني الملك الراحل. وأنجب مسينيسيا ولدين هما اذربعل وهيامبسال وتبنى يوغورطة ابن أخيه الهالك مانسطبعل ورباه في قصره كأحد أولاده واعتنى به مثل عنايته بابني صلبه.

وتميز يوغورطة منذ نعومة أظفاره بقوة ملحوظة وجمال عجيب وعلى الخصوص متانة أخلاقه فلم يخلد إلى لذة ولا

انصرف إلى ترف، بل تعاطى جميع الرياضات الجارية في بلاده من رباط الخيل ورماية الحراب ومنازعة أترابه جوائز المسابقات... إلخ......"

وما نقله لنا سالسطيوس من أخبار البربر وبيان أحوالهم في كتابه حروب يوغورطة كثير ولا يمكن التبسط فيه وقد تناول البحث العلمي كتابه بالنقد والتحليل بما لا يتسع لبيانه هذا المقام.

ونستطيع أن نضيف إلى ساليطيوس -عرضا- الفاتح يوليوس قيصر نفسه أو احد كتابه بالأحرى الذي ألف دراسة عن حروب يوليوس قيصر بإفريقيا سماها حروب افريقيا وهو عظيم الأهمية أيضا.

طيطش ليوس:

مؤرخ روماني شهير، ولد بمدينة بادوة بإيطاليا عام 59 ق. م. ومات عام 19 بعد الميلاد، ألف كتاب العشريات أو المعشرات في تاريخ الرومانيين. وقد اعتنى فيه بإتقان الإنشاء وسمو القلم أكثر منه بتحقيق الحوادث.

كان هذا المؤرخ معجبا بالماضي وقاصا من الطراز الأول. فأشاد في كل مقالة بعظمة رومة والتمس في التاريخ موعظة ودرسا وموضوع بيان ساحر وخطب رنانة.

ويغلب على الظن أن بعض تراجمه بيت الحكمة في القيروان في القرن الثالث قد نقل هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية، وهو أحد مصادر ابن خلدون في بعض الأقوال. وتصنيف طيطش

ليوش مملوء بالبيانات فيما يتعلق بأخبار البربر في عهد ملوكهم من ماسينيسا إلى يوغورطه وهو قد أفاض في أخبار ماسينيسا وما كانت علاقاته مع القرطاجيين فانه كان يهاجم أخصب جهاتهم ويقتطع أعمر أصقاعهم ويضمها إلى مملكته وعجزت قرطاجنة عن مقاومته بالقوة فلجأت إلى تحكيم الرومان. فاسقطوا دعواها تارة وتغافلوا عن أعطائها الحق تارة أخرى مما سمح لماسينيسيا بان يبني إمبراطوريته على حساب أهل قرطاجنة فاخذ السهول الكبرى أي سهول مجردة من سوق الأربعاء إلى طبربة. وأخذ جهة توسكا أي جبل خمير وغزا جهات من طرابلس إلى غير ذلك.

ويعتمد طيطش ليوش في مصادره التاريخية على برليبوس في الأكثر كما يعتمد على مروياته الخاصة فقد انفرد بيانات ووثائق لم ينقلها لنا غيره أفادنا فيها بجزئيات عن ماسنيسيا وأحفاده بما لم يفدنا غيره من المؤرخين.

وقد تبسط صاحبنا في أخبار حروب يوغورطه وانفراد ببيانات دون سالسطيوس مؤرخها الشهير.

حدثنا طيطش ليوش في الأسفار 62 و 64 و 65 و66 من معشراته عن حوادث افريقيا من سنة 118 إلى سنة 105 ق. م. ولم يبق لنا من هذه الأسفار إلا ملخصات هزيلة ومن أهم الملخصات تأليف بولس هوروشيوش الذي نقل إلى العربية في عهد عبد الرحمن الناصر بالأندلس واعتمده ابن خلدون في كتابته عن تاريخ الرومان ويسميه هرشيش وهو تصحيف من

النســاخ على ما يظهر ونعلم من كتاب هورشــيوش أن طيطش ليــوش الذي كان يبغض ســاطيوس لم يتبعه فــي روايته حروب يوغورطه واستقل عنه في نقل الأخبار.

وبالجملــة فهذا المؤرخ مصدر من أهــم مصادرنا لمعرفة أخبار الإمبراطورية البربرية المستقلة من عهد مؤسسها ماسينيسيا إلى آخر أيامها بعد الاحتلال الروماني النهائي..

بوميونيوس ميلا:

هــو أحــد الكتــاب الرومانيــين الذين نشــاوا باســبانيا أمثال الفيلســوف ســنيبخا واللغــوي كوينليانــوس. وألــف كتابــه الخوروغرافيــا وهو أقــدم تصنيف جغرافي ألفــه الرومانيون. وقد وضعه ميلا ســنة 44 بعد الميلاد. غير أن هــذا الكاتب لم يعتمد على مشــاهداته الخاصــة ولا على آخر ما حــدث ولكنه رجع إلى المصــادر القديمة التــي ألفت في القرن الرابــع أو الثالث أو الثاني قبــل الميلاد. فقــد كان ميلا مثقفــا أكثر منه عالمــا. فعول على مطالعاتــه. واعتمد أيضا ساســطيوس وكان بــه معجبا وعول أيضا علــى افلينوس وفارونس وكورنيليــوس الحفيد وقد ترك هذا المصنــف وصفــا موجــزا لإفريقيا الشــمالية لا يرجــع إلى عهد المصنف بل إلى عهد الجمهورية أي قبل عصر ميلا بنحو قرن.

افلينوس القديم:

كاتــب روماني رياضــي ولد بمدينة كومو ســنة 23 بعد الميلاد. وألــف التاريخ الطبيعي في 37 ســفرا. وهو عبارة عن موســوعة ثمينــة عن العلوم الرياضيــة والطبيعية وتاريخهــا في العصور

القديمة إلا أنها محشــودة بالمعلومات التاريخية يذكرها بمناسبة أو بدون مناسبة وقد نقل لنا شيئا ذا أهمية من أخبار البربر. ومات في انفجار بركان الفيزوف سنة 79 عندما حاول إنقاذ منكوبيه.

5 - المؤرخون من البربر:

اســتولى الرومــان على عامة الديــار المغربية من ســنة 146 ق. م. إلــى ســنة 698 بعــده. وترمنــت البــلاد فــي مؤسســاتها وأجهزتهــا الحكوميــة والاجتماعيــة والاقتصاديــة ومظاهرهــا اللغويــة والثقافيــة. وأقبــل البربر علــى تعلم اللغــة الرومانية محادثة وكتابــة والتبحر في الخطابة والبلاغــة والآداب اللاتينية بفضــل ما وجد في البــلاد المغربية من مــدارس ابتدائية وثانوية. وعلى الخصوص بفضــل جامعة قرطاجنة الكبرى والإرســاليات الطالبية التي كانت تذهب إلى معاهد رومة للكرع من مناهلها العلميــة وتخرج من البربر الكاتبين باللاتينية مآت من الشــعراء والخطباء والأدباء والعلماء والأطباء والمحامين.

فلاشــك انه تخرج منهم أيضا مؤرخــون "وطنيون " محليون كانوا اعرف من الرومان بتاريخ البلاد وأخبار العباد.

وإذا اســتعرضنا تاريــخ الأدب البربــري باللغــة اللاتينيــة واســتقصينا أخبــار مــن عنــوا بالعلــوم التاريخيــة وجدناهــم ينقسمون إلى قسمين:

أ - المؤرخــون بالمعنى الخاص. أي الذيــن احترفوا أصالة صناعة التاريخ فدونوا الأخبار وتقصوا الآثار.

ب- الكتاب الذين لم يعتنوا بالتاريخ مباشرة لكن انقدوا المجتمع فبينوا لنا عاداته وأخلاقه وفضائله ورذائله ومنازعه ومشاربه : والقوا المواعظ في الكنائس أو الساحات الشعبية العامة فبنوا العيوب ونعتوا الأدواء ووصفوا الدواء. أو ألفوا روايات قصصية وصفية فوصفوا لنا المجتمع في حالة نشاط وتدفق حيوية في أدق جزئياته. فنستطيع أن نذكر في القسم الأول القدير أوغرستينيس العنابي الذي أعطانا تفاصيل إضافية عن المجتمع المغربي عامة والبربري خاصة خلال القرن الخامس بعد المسيح وأسهب في البيانات التي شخص بها المجتمع خصوصا في كتابيه الاعترافات ومدينة الله.

ونستطيع أن نذكر من القسم الثاني الكاتبين ترترليانوس وقبريانوس وقد انتقدا مجتمع عصرهما في القرن الرابع فصوراه لنا من وراء ذلك أبدع تصوير حي واقعي. فنرى مجتمع عصرهما حال حياته العائلية بالمنازل وحياته الدينية بالكنائس والأديرة، وحال حياته العامة في الشوارع والجامع والخمارات والمسارح والساحات الشعبية والأسواق والحقول. ونستطيع أن نذكر من القسم الثاني الكاتب الروائي أبوليوس الذي ألف-فيما ألف- عدة روايات أهمها وأشهرها رواية الحمار الذهبي وهي تتناول الحياة العامة المغربية فتصفها وصفا دقيقا. وتستعرض الشخصيات البارزة القارة أو المباغتة في كل مجتمع. ولو أن أحدنا قضى مدة في تحليل كل هذه المصنفات واستخرج منها المشاهد والأشخاص لصنف لنا كتابا جليلا في تركيب المجتمع البربري خلال الاحتلال الروماني.

وبالرغم من شـــدة رغبتنا في تناول هــذا التحليل موجزا فإننا مجبــرون بحكــم ضيق المقــام ومســايرة الموضوع مباشــرة بأن نقتصر على القسم الأول من المؤرخين أي المؤرخين بالمعنى الخاص لهذه الكلمة، وأشهرهم :

فلوروس :

لعلنا نجد بين فلــوروس المؤرخ الإفريقي في عصر الرومان، وبين ابن خلدون المؤرخ الإفريقي في عصر الحفصيين وجوه شبه كثيرة، أو لعلنا نستطيع أن نقول إن فلوروس هو حد أعلى "تاريخي" لابن خلدون فكلاهما فيلســوف تاريخ أكثر منه مؤرخ، وكلاهما باحث اجتماعــي أكثر منه راوية أخبار، ولكليهما من العيوب والمحامد ما يكون أشــبه من الماء بالماء، ولعل البلاد الإفريقية إذا أنجبت مؤرخا فذا أوحت إليــه من الصفات الخاصة والعامــة والفنية ما يتفق اتفاقا كبيرا على بعد الشــقة الزمنية بين المؤرخ والمؤرخ، وإذا كان ابــن خلدون عربي الأصل إلا أنه يمني من حيث الانتســاب الأعلى، وهو نفس النســب المعزو إليه البربــر، وهو على كل حال قد عاش في بــلاد البربر أصالــة واتصــل بحكومات بربرية مــن حفصيين بتونــس وزيانيــين بالجزائر ومرينيــين بالمغرب، فــإذا كان ابن خلدون كذلك فإن فلــوروس بربري أصالة، وهو مثل ابــن خلدون أيضا قد انتقل مــن بلاط إلى بلاط وخدم القياصرة الرومانيين وراســلهم شــعرا ونثرا وصنــف لهم التصانيــف فخبر أحوال الــدول ودرس دواليب الحكومات وعرف نفســيات الرجال والساســة والموظفين ونزعــات الشــعوب؛ فتكونت لــه من ذلــك خبرة مثل خبــرة ابن خلدون.

لخص فلوروس تاريخ طيطش ليوش المعروف بالمعشرات. لكن هذا التلخيص هو في الحقيقة محاولة لوضع علم فلسفة التاريخ : كما فعل ابن خلدون. ووجه شبه آخر بين مؤرخنا الأول ومؤرخنا الثاني هو تقسيم حياة الدولة إلى أربعة عصور النشأة والعظمة والانحطاط والاندثار. فيبين فلوروس في كل دولة أسباب العظمة وأسباب الانحطاط.

وقد سار على غرار فلوروس بوسويه (1627-1704) ومونتسكيو (1589-1755) عند الفرنسيين. وفيكو (1668-1744) عند الإيطاليين.

وقد اعتنى فلوروس بتحليل التاريخ المغربي وأبدى أفكار قيمة ودرس بنور جديد تاريخ المغرب الروماني وأحوال البربر في هاتيك العصور. ونضيف إلى فلوروس ثلاثة مؤرخين آخرين من أصل بربري هم أيضا قد اعتنوا بالتاريخ العام وأيضا بالتاريخ الخاص بشمال افريقيا. وهم : مرونتونوس القرطي (أي القسنطيني) واولوجيلس الذي ألف الليالى الاتكية وهي مذكرات سجل فيها الحوادث اليومية من جليلة وحقيرة التي شاهدها أو عاشها خلال حياته الطويلة. والثالث هو أوريليوس فيكتور وقد ألف أيضا في التاريخ المغربي.

الفصل الثاني

ابن خلدون وتاريخ البربر

كان يجب أن نعنون هذا الفصل - تبعا للسياق والترتيب التاريخي العرب وتاريخ البربر. إلا أننا رأينا ابن خلدون بجمع في حد ذاته هذا التاريخ فقد تشبع منه وتقمصه حتى صار عنوانا عليه. ولو أن لأبن خلدون أسلافا مؤرخين أشهرهم ابر يوسف الوراق وإبراهيم الرقيق وأحمد التيفاشي. وإذا كان الوراق أول من أفسح المجال في تصنيفه المطول لدرس تاريخ البربر. فإن الرقيق أول من أفردهم بالتأليف. والتيفاشي أول أو على الأقل أكبر من مجدهم تمجيدا وذكر مفاخرهم وصور بطولتهم. ولتوضيح تاريخ البربر ينبغي أن نستعرض ما قاله فيهم ابن خلدون ملخصا.

قال ابن خلدون: " هؤلاء البربر جيل ذو شعوب وقبائل من تحصى... ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس. بل إلى الاسكندر عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وبلاد منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها..."

وقال : "... الجيل من الآدميين (يعني البربر) هم سكان المغرب

علــى القدم ملؤا البســائط والجبال من تلولــه وأريافه وضواحيه وأمصاره".

ثم إ ن ابن خلدون يصف لنا أحوال ا لبربر بالترتيب فيقول:

1 - مســاكنهم"... يتخذون البيوت مــن الحجارة والطين ومن الخصاص والشجر ومن الأشعار والأوبار..".

2 - معائشهم: " ... ويظمن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعــي فيمــا قــرب مــن الرحلــة لأيتحــاوزون فيها الريــف إلى الصحراء والقفر الأملس. ومكاســبهم الشاة والبقر. والخيل في الغالب للركــوب الانتاج. وربما كانت الإبل من مكاســب النجمة منهم -شــأن العرب- ومعاش المســتضعفين منهــم في الفلح ودواجن الســادمة. ومعاش المعترين من أهل الإنتاج والاطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة"

3 - ملابســهم وأثاثهم: ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف، ويشــتملون العماء بالأكســية المعلمة. ويفرغون عليها البرانس الكحــل. ورؤوســهم -فــي الغالــب- حاســرة وربمــا يتعاهدونها بالحلق."

4 - لغتهم: " ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها. وهي التي اختصوا من اجلها بهذا الاسم"

5 - أخلاقهــم: "... وأمــا تخلــق ا لبربر بالفضائل الإنســانية، وتنافســهم في الخصال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرق والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق. من عز الجــوار وحماية النزيل، ورعي الذمة والوســائل، والوفاء بالقول

والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الملكة، والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر الكبير، وتوفير أهل الدين، وحمل الكل، وكسب المعدوم، وقري الضيف والإعانة على النوائب، وعلو الهمة واباءة الضيم، ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوات، وغلاب الملوك، ربيع النفوس من الله في نصره دينه.... فلهم في ذلك أثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعية من الأمم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز وارفت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدي أيديهم، ومضت في الخلق -بالبسط والقبض- أحكامهم.

6 - ديانتهم: رأى ابن خلدون بحصافة فكره وقوة ملاحظته أن عقائد البربر تطورت بحسب تأثرهم بمن زحف عليهم من الأمم، فقد تقلبت إلى ثلاثة:

أ- الماجوسية أو الوثنية:

قال " ... وكان دينهم دين الماجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب".

ثم دانوا بديانة من غلب عليهم من الأمم فتنصروا أولا، ثم دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم.

ب- النصرانية- قال:

"... إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم، فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون على البربر فقد

غزتهم ملوك اليمن. نقل ابن الكلبي أن حمير أبا القبائل اليمنية ملك المغرب مائة عام، وأنه الذي ابتنى مدائنه مثل افريقية وصقلية. واتفق المؤرخون على غزو افري قش بن صيفي من التابعة إلى المغرب كما ذكرناه. وكذلك اغتزتهم ملوك الروم من قرارهم برومة (الرومان) والقسطنطينية (الروم البيزنطيون) وهم الذين خربوا مدينة قرطاجنة (146 ق.م.) ثم جددوا بناءها - كما ذكرناه في أخبار الروم- واختطوا بسيف البحر وما يليه من الأرياف مدنا عظيمة وثيقة المباني، شهيرة الذكر. باقية المعالم والآثار لهذا العهد مثل سبيطلة وجلولا ومرناق ووطاقة (أو تيكة أو عوتيقة وتسمى الان بشاطر قرب بنزرت أول عاصمة للفينيقين، أسست في القرن الثاني عشر قبل الميلاد). وزانة، وغيرها من المدن. وقد كان البربر دانوا لعهد الرومان والروم ذلك بما تعبدوهم به من دين النصرانية وأعطوهم المقادة وأدوا إليهم الجباية طواعية".

وفعلا دخل البربر في الديانة النصرانية من أواخر القرن الثاني للمسيح إلى القرن السابع وكان لهم شهداء استشهدوا من أجل عقيدتهم النصرانية التي كانت الحكومة تقاومها في الأول. فلجأ المتنصرون الجدد إلى المخابئ التي تحت الأرض وهي سراديب ملتوية يعيشون فيها ويتعبدون ويدفنون موتاهم. ومن عثر عليه منهم سيق إلى المسرح حيث تطلق عليه الحيوانات الضارية الجوعة فتمزقهم أربا أربا أمام الجماهير للاتعاظ. وقد تكونت عند البربر عدة شيع ونحل نصرانية أهمها الكاثولكية والدوناتوسية والاريوسية والوحدانية كما سنراه بعد.

ت- اليهودية:

دخلت اليهودية البربر مع البربر المتهودين الذين جاؤوا من اليمن. ثم مع اليهود الذين هاجروا من الشام بعد سقوط بيت المقدس وتخريب المعبد وزوال دولتهم ودخولهم في "الجلوة" Diaspora أي تشتتهم في الأرض شذر مذر. وبربر اليمن سكنوا الجبال في الغالب وبربر بيت المقدس سكنوا جزيرة جربة حيث توجد بقاياهم إلى الآن. وقال ابن خلدون :

"... وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية، أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لعرب الشام وسلطانه يومئذ منهم. كما كان جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة يقاتلون العرب لأول الفتح كما كان نفوسة من برابر افريقية، وقندلاوة، ومديونة، وبهلولة وغياتة وبنوا فازار من برابر المغرب الأقصى. حتى محا إدريس الأول الناجم بالمغرب من بني الحسن بن الحسن جميع ما كان بنواحيه من بقايا الأديان".

ث- الإسلامية:

دخل البربر في دين الله أفراجا منذ سنة 27هـ أي منذ فتح العبادلة السبعة إثر وقعة سبيطلة في الجنوب الغربي التونسي. وتم إسلام جميع البربر في أواخر القرن الأول إلا من قل منهم. وحسن إسلامهم وصاروا من كبار الناصرين للإسلام والمسلمين.

قال ابن خلدون:

"... واما إقامة البربر لمراسم الشريعة، وأخذهم بإحكام

العلـــة، ونصرهم لديـــن الله فقد نقل عنهم مـــن اتخاذ المعلمين كتاب الله لصيانتهم والاســـتفتاء في الفروض أعيانهم وابتغاء الأدمـــة للصلوات فـــي بواديهـــم وتـــدارس القران بـــين أحيائهم، وتحكيم حملـــة الفقه في نوازلهم وقضاياهـــم، وصاغيتهم إلى أهل الخيـــر والدين من أهل عصرهم التماســـا للبركة في أثارهم وســـؤالا للدعاء من صالحيهم واعتيانهـــم البحر لفضل المرابطة والجهاد وبيعهم النفوس من الله في ســـبيله وجهاد عدوه ما يدل على رســـوخ إيمانهم وصحـــة معتقداتهم ومتـــين ديانتهم التي كانت ملاكا لعزهم ومفادا إلى سلطانهم وملكهم..."

مصادر ابن خلدون:

ما المصادر التي اعتمدها ابن خلدون لدراسة تاريخ البربر؟ حل هذا المشـــكل المهم هر بيـــان لتفهم تاريخ البربـــر خلال العصور، وســـنحاول فـــك هذا المعمـــى بما لدينا مـــن الكتـــب. ويتضح من مراجعة هذا الكتـــب أن المصادر التي اعتمدها ابن خلدون لتحرير كتابه أربعة:

أ- المصـــادر البربرية الســـابقة للإســـلام، وذلك انه لما نشـــبت الحـــروب البونيقية بـــين القرطاجنيين والرومان مـــن القرن الثالث قبل المســـيح إلى ســـنة 164 ق. م. تكـــونـــت إمبراطوريـــات بربرية بحتة أسســـها زعماء وطنيون من البربر على حساب البونيقيين والرومان في الأن الواحد، واعتنى هؤلاء الملوك بتصنيف انســـاب البربر وتدوين تواريخهم واثبات مفاخرهم، وكتبوا هذه التصانيف باللغة البونيقية التي كانت لغة العلم يومئذ، وصنفوا بعضها

باللغة اللوبية التي هي البربرية القديمة المعروفة لذلك العهد.

مصادر تاريخ البربر عند ابن خلدون: كان ابن خلدون يحذق شيئا من البربرية، ولاسيما البربرية الهنتاتية التي كانت لغة البلاط عند الحفصيين. وقد لاقى مختلف للهجات البربرية في رحلاته المتعاقبة خلال بلاد البربر والأندلس وكان يعرف شيئا قليلا من الاسبانية وخصوصا اللهجة البلنسية التي كانت أيضا لغة البلاط الحفصي. إلا أن معرفته البربرية ليست بالمقدار الذي يسمح له بالاطلاع على كتب البربر في لغتها الأصلية، ومعرفته شيئا من الأعجمية الأندلسية مما سمح له بالاطلاع على الكتب التي ألفت في اللاتينية عن البربر وإنما اتصل ابن خلدون بهذه الكتب عن طريق الترجمة، فمصادره ثلاثة عربية ولاتينية وبربرية.

ت- المصادر العربية: ألف العرب في نسب البربر منذ أول عهدهم بالتصنيف التاريخي أي في القرن الثاني للهجرة وأقدم من قام بذلك على ما يظهر النسابة ابن الكلبي ثم تعاقبوا بعد ذلك إلى عصر ابن خلدون. وإليك أهم النسابين:

أبن الكلبي: هو هشام بن محمد بن ابن نصر بن السائب الكلبي النسابة المؤرخ توفى سنة 206هـ وله كتاب الأنساب وبيوتات اليمن وقد اعتمده ابن خلدون.

عبد الله ابن قتيبة: (213-276) كاتب عربي شهير له كتاب الإمامة والسياسة وكتاب المعارف وفيهما كثير من أخبار افريقية والمغرب وهو من أقدم من طرق موضوع البربر من مؤرخي العرب.

أبو جرير الطبري: (224-310) المؤرخ والمفسر له كتاب أخبار الرسـل والملوك وقد تحدث فيه عن البربر واعتمده ابن خلدون في تاريخه.

أبو الحسـن المسـعودي: (توفي 345هـ) له كتاب مروج الذهب وهو من أقـدم من كتب عن البربر اعتمده ابن الصغير في كتابه سـيرة الملوك الرسـتميين والشـماخي في طبقاته مـن علماء البربر.

أبو يوسـف الوراق: مؤرخ وجغرافي تونسـي ألف أطول كتاب في تاريـخ المغرب وجغرافيتـه. فهو كان يعيش فـي القرن الرابع الهجري وقد اعتمده ابن حزم ثم ابن خلدون.

علي ابن حزم: (384-456) له كتاب جمهرة الأنساب وفي أخره انساب البربر. وقد اعتمده ابن خلدون.

إبراهيـم الرقيـق القيرواني: (توفي سـنة 483) أول من خص البربر بكتاب في أنسـابهم له كتاب انسـاب البربر وكتاب أخبار القيـروان وافريقيـة. وقـد اعتمده ابن خلـدون كثيـرا. واعتمده الشماخي أيضا.

الجرجاني: أبو الحسـن علي بن عبد العزيز (290-366) له كتاب تهذيب التاريخ وهو مما اعتمد عليه في أخبار البربر.

ومزيب الماريخ وهو كما اعتمد عليه في أخبار البربر.

أبو بكر البيهقي المحدث (384-468) وله بسطة عن البربر في كتبه الحديثية لا سيما كتاب: الأسماء والصفات.

أحمد التيفاشي القفصي: من أبناء تيفاش عالم بالرياضيات والآداب والعلوم توفي سنة 651 وله كتاب: الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة. من أحسن ما ألف في البربر وأخبارهم وأنسابهم ومفاخرهم.

ت - المصادر اللاتينية: مصادر ابن خلدون اللاتينية اتصل بها عن طريق الترجمة ثلاثة:

أولها: معشرات طيطش ليوش التي ترجمت إلى العربية ببيت الحكمة بالقيروان في القرن الثالث.

ثانيها: تلخيص المعشرات لفلوروس الإفريقي ويحتمل أنها نقلت إلى العربية فاتصل بها ابن خلدون.

ثالثها: المؤرخ الروماني ذو الأصل الاسباني بولس هوروشيوش P.Orase الذي يسميه ابن خلدون "هرشيش" بالتخفيف وبدون مد. وقد ذكره في مواطن كثيرة من كتابه.

ث- المصادر البربرية : التي اعتمدها ابن خلدون ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الكتب التي ألفها البربر في عصر استقلالهم وتكوين إمبراطوريتهم الأولى في القرن الثاني قبل الميلاد مما كتبه ملوكهم وعلماؤهم باللغة البونيقية التي كانت إحدى لغات الثقافة بتونس يومئذ إلى جانب اليونانية واللاتينية والبربرية القديمة (اللوبية).

الصنف الثاني: نسابو البربر: اعتنى البربر في العصر الإسلامي بضبط أنسابهم وإلحاقها بحمير في الغالب وامتازت

بذلك بعض القبائل لأسباب سياسية ودينية لاسيما القبائل التي قامت بدور أساسي في تاريخ الإسلام مثل كتامة وزاواوة وغمارة ومقلاطة وهوارة وصنهاجة وهنتاتة. ونحن نعرف انساب أشهر النسابين وشيئا من ترجمتهم.

وقد بدأ هذا العمل منذ عهد الاغالبة إلى عهد الحفصيين. وأكثر هؤلاء النسابين يعزون إلى قبيلة مطاطه التي يوجد لها جناح بالمغرب وجناح بالجنوب التونسي فنحن نقسم هؤلاء النسابين إلى أربع طبقات:

الطبقة الأغلبية (184-296) أشهر هؤلاء المؤرخين أبو سهل الفارسي النفوسي حفيد الإمام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية بمدينة تاهرت بالجزائر. كان مترجم اللغة البربرية في دولة عمية الرستميين افلح ويوسف. وقد ألف ديوان شعر باللغة البربرية ضمنه تاريخ البربر وحروب الاباضيين والسنيين. لكن هذا الديوان الثمين احرق بعضه النكاريون وأحرقت بقيته في قلعة بني درجين. فلم يبق منه شيء الآن وضاع الأمل أو كاد في العثور عليه. نقول أن الديوان ضائع الآن ولا مانع أن يكون موجودا في عصر ابن خلدون. وانه انتفع منه لأنه قد جاء في عصر عز البربر وازدهار دولتهم الرستمية المعاصرة للاغالبة. ويمكن أن نلحق بأبي سهل الفارسي نسابين آخرين نجهل عصرهما ويظهر انه العصر الاغلبي وهما: خالد بن خداش المطامطي المغيلي (وتوجد بالجنوب التونسي قلعة ابن خداش). وخليفة بن خياط المطاطي المغيلي (ومغيلة بطن من مطماطة) ذكرهما ابن خلدون واعتمدها فيما يتعلق باستيلاء

أبي قرة الخارجي على القيروان سنة 150هـ

الطبقة الثانية الفاطمية (296-361) وأشهر نسابيها من مطماطة أيضا. واكبر نسابي هذا العصر هو أبو أيوب أبي يزيد مخلد بن كيداد. وكان أبوه قد خرج على الفاطميين وجعل دولتهم قاب قوسين أو أدنى من هلاكها. ولد أبو أيوب في أواخر القرن الثالث ونشأ نشأة مؤرخ نسابة. وأرسله أبوه إلى بلاط الخليفة الناصرالأموي بقرطبة لينجده ضد الفاطميين وقتله عبد الله بن بكار سنة 333 وأرسل رأسه إلى المنصور العبيدي الفاطمي واتصل أبو أيوب بابي يوسف الوراق أكبر مؤرخي العصر الفاطمي وواضع اكبر موسوعة في تاريخ المغرب وجغرافيته وأعطاه نسب البربر عامة ونسب أبيه خاصة الذي هو في قبيلة يفرن ويرتفع إلى جانة وزناتة في 11 طبقة زاد عليها ابن خلدون طبقات أخرى لإكمالها. وقد نقل عنه ابن حزم هذا النسب في كتابه جمهرة الأنساب واعتمده أيضا -نقلا عن الوراق- في نسب مدغيس والبرانس إلا أن رواية هذا النسب تخالف رواية سابق المطماطي وهاني بن مزدور وكهلان.

ومن نسابي هذا العصر أبو محمد بن يغني البرزالي الاباضي. وكان البرزالي رجلا فقيها تقيا عالما بأنساب البربر. وقد روى عنه ابن حزم في جمهرته انساب البربر ومن كان منهم من الاباضية ومن كان من السنية. ثم نقل ذلك ابن خلدون عن ابن حزم.

الطبقة الثالثة: العصر الصنهاجي (361-555) وأشهر النسابين في هذا العصر: كهلان بن أبي لوا بن ازلاسن المطماطي

وهو رجل عالم بأنساب البربر ذهب إلى الأندلس لدى علي الناصر بن حمود الصنهاجي أمير مالقة (407-408) وقد اعتمده ابن خلدون في دراسة البربر.

الطبقة الرابعة: العصر الحفصي (555-900) وأشهر نسابي هذا العصر إبراهيم بن عبد الله التمزوغتي الذي عاش قبل ابن خلدون بمدة يسيرة، واعتمده هذا الأخير في بعض الأنساب نقلا عن ثقة رواها له عنه.

إلا أن كثيرين من نسابي البربر لا نستطيع تعيين عصرهم ولو على وجه التقريب، وفي مقدمتهم أكبر نسابيهم على الإطلاق : سابق بن سليمان بن الحراث بن دوناس المطماطي. وطالما ذكره ابن خلدون بإكبار وتمجيد وقد سماه أكبر نسابي البربر فيما يتعلق بنسب برنس بن يزيد مازيغ بن كنعان، ونسب لو الأصغر، فروع نفزاوة ولماية وورتناجة وهوارة ويقول ابن خلدون أن سابقا إمام نسب وشيخ جماعة.

ومن نسابي البربر أيضا الذين لا نعرف عصرهم:

هاني بن مزدور بن مريس بن نفوت الندرومي الكومي وهاني بن بكور الضريسي وغيرهما.

وهنالك طبقة أخرى من النسابين الذين نجهل حتى أسماءهم، فهم قد عنوا بإيجاد نسب قبيلة بربرية من كتامة وزواوة وغمارة ومقلاطة (وإليها تنسب مدينة البقالطة بالساحل التونسي فقد نقل البقالطة علي بن يحي الصنهاجي سنة 515هـ وأسكنهم بالبلدة المنسوبة إليهم الأن فرارا بهم من هجمات

قبيلة سبخاس التي كانت تغزوهم بجهة قفصة (وابدال الميم باء جائز في العربية والبربرية فنقول مكة وبكة) وعنايته تلك لإثبات نسبهم في العروبة لرفع مركب عنهم ومزاحمة العرب في أرومتهم لإغراض جنسية وسياسية. نستطيع أن نتبين أمثالا لها في التصانيف البربرية كتب الأنساب من ناحية، وكتب الطبقات والسير من ناحية أخرى. أما كتب الأنساب فلها غرض سياسي ظاهر قد بيناه. وهي أعم لأنها تشمل جميع قبائل البربر. أو على الأقل القبائل النابهة منها ذات الدور الكبير. وأما كتب الطبقات والسير فهي تعني طبقات الاباضيين وسير الأئمة السياسيين أمثال بني رستم أو أئمة المذهب الاباضي طبقة بعد طبقة. فهي ذات موضوع مذهبي أولا. وذات دائرة أخص فلا تشمل من البربر إلا من كان على مذهب محمد بن اباض وإذا كانوا كثيرين في عصر بني رستم فهم أقل كثرة فيما تلا من العصور. ولهذا كانت عناية ابن خلدون بهذا النسب أقل.

وإذا تبينا هذا من جهة الموضوع، فنستطيع أن نتبين من جهة اللغة ثلاثة أطوار أيضا. ففي الطور الأول كانت اللغة البربرية سائدة والتصانيف بها اظهر لأن عموم البربر كانوا يجهلون العربية وكان خواصهم يعرفونها. ناهيك أنه منذ القرن الأول ظهر شاعر يسمى سابق بن عبد الله البربري أوقف أغلب شعره على مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي.

وفي هذا العصر الأول ألف مؤرخو البربر تصانيفهم في الطبقات والسير بالبربرية دون غيرها إلا أن هذه التصانيف قد ضاعت وإنما اعتمدها من أتى بعد هؤلاء فوضع كتب الطبقات

والسير. مثل الوسياني والدرجلين والشماخي والبرادي. ويظهر أن هذا الطور الأول يبتدئ من أوائل القرن الثاني وينتهي في أواخر القرن الثالث.

والطور الثاني هو الطور العربي البربري الذي يوافق ظهور الحكومة العربية البربرية مثل الحكومة الزيرية بتونس والحمادة بالجزائر. ففي هذا العصر جمع الكتاب بين اللغتين في تصانيفهم وهذا الطور يبتدئ من أوائل القرن الرابع وينتهي في أوائل السادس.

والطور الثالث هو الطور العربي البحث فقد صنف أصحاب السير والطبقات بالعربية دون غيرها وإن أقحموا عدة مفردات بربرية ضمن السطور.

الفصل الثالث

البربر في التاريخ

1 - أصل البربر

النظريات المتعلقة بأصل البربر ثلاث:

أ- الأصل الأوروبي:

يذهب البعض من العلماء إلى أن البربر من أصل هندي أوروبي، أي من الأصل اليافتي المنسوب إلى يافت بن نوح عليه السلام، خرجوا في عصور متقادمة من الهند ومروا بفارس ثم بالقوقاز، واجتازوا شمال اوروبا من فينلاندا إلى اسكندينافيا ثم بريطانيا الفرنسية ثم اسبانيا، ويستدلون على ذلك بالمعالم الميغالينية أو معالم الحجارة الكبرى من المطاطب (الدولمين) والمسلات (المنهيد) والمستديرات (الخرومليكس) التي بثوها على طول هذه الطريق وهي توجد بشمال افريقيا وتنتهي بالمفيضة. كما يستدلون باسماء قبائل الكيماريين بفينلاندا والسويد وبني عمارة في المغرب وخميس بتونس فالأسماء متشابهة جدا؛ أو بالحرف الروني المنقوش على المعالم الميغالينية فإنه يشبه الخط اللوبي المنقوش على الصخور بشمال افريقيا ولبعض

الخصائص البشرية كبياض القوقاسي وزعرة الشعر المتصف بها الشماليون.

ب- الأصل السامي:

ومعظم الباحثين يذهبون إلى أن البربر من أصل سامي أولي من أبناء سام بن نوح لا يافث بن نوح. فقد كانت الجزيرة العربية موطن الساميين مغشاة بالثلوج في شمالها. فكانت اليمن بلاد اليمن والخير وهي مهد أبناء سام الأولين مختلطين مع أولاد أعمامهم أبناء حام. فلما انحسرت الثلوج اشتدت الحرارة وقحلت البلاد وتفرق سكانها فانتقل الفرع السامي من البربر والنوبة والحبشة وقدماء المصريين إلى افريقيا واستوطنوها فانفرد البربر بشمال افريقيا والحبشة بإفريقيا الشرقية والسودان بإفريقيا الشرقية والوسطى. وهذا ما ذهب إليه العرب وهر مشهور المذهب عند الأوروبيين اليوم لاسيما علماء الألمان الذين هم نزهاء في بحوثهم. ويتبعهم في ذلك الإيطاليون.

ت- الأصل المزدوج:

ويذهب فريق ثالث إلى أن البربر ينتسبون إلى سلالتين. فالسلالة الأولى هي الهندية الأوروبية التي نزحت إلى افريقيا من آسيا ثم أوروبا على الطريق التي ذكرنا وبالأسلوب الذي ذكرناه: والسلالة الثانية سامية أولى كما وصفنا. ثم التقت السلالتان بالمغرب وهذا ما يفسر لنا اختلاف الخصائص البشرية عند البربر في السحنة ولون الشعر والعيون وشكل الجمجمة وحتى اللهجات. وهذا ما يفسر أيضا الخلاف القائم بين مصمودة

وصنهاجة مثلا.

2 - ملوك البربر قبل البونيقيين:

ارتقى البربر رويدا رويدا من رئاسة القبيلة عند قدومهم إلى المغرب بأثر انتهاء العصر الحجري إلى "جمهورية" القرية التي تتألف من "الجماعة" ورئيسها. ثم رويدا رويدا أسسوا الحكم الملوكي وأسلسوا قيادهم إلى ملوك صغار يسمى الواحد منهم "اجليد" وأخذت هذه الملوكية تتجمع كتلة كتلة إلى أن عمت جهات بعينها.

3 - ملوك البربر في العهد البونيقي: (815ق.م.-146ق.م.).

إن الأطراف التي بقيت بعيدة عن الحكم البونيقي المباشر، أي عن سلطان قرطاجنة نفسها حاولت مرام إنشاء ممالك دامت طويلا أو قصيرا وتوقفت قليلا أو كثيرا واستقلت عن القرطاجنيين إن أكثر وإن أقل. وهذه الجهات في الغالب هي الصحاري والجبال والأقاليم الداخلية البعيدة عن الساحل الواقع تحت نفوذ البونيقيين.

أ- الإمبراطورية الغربية:

نلاحظ في تاريخ إنشاء الإمبراطورية البربرية ثلاث مراحل تطابق الظروف والمناسبات وسياسة المقاربة. فلما كان المغرب الأقصى بعيدا عن تأثير القرطاجنيين والرومان في الآن الواحد فقد نشأت فيه أول إمبراطورية قبيل القرن الرابع ق.م.

ب- الإمبراطورية الوسطى:

في القرن الثالث أمس العاهل البربري سيفاكس إمبراطورية كبرى بالمغرب الأوسط جعل عاصمتها مدينة قرطة أو قسنطينة وكانت تعمرها من القبائل البربرية قبيلة الجيتوليين (جدالة) وماسولة (ولعلها مزونة) وكان من عظمة هذه الإمبراطورية البربرية أن قرطاجنة رغبت في حلف سيفاكس وأعطته بنتا من الأرسطوقراطية العليا واستقل سيفاكس بالجزائر كلها وجلب معالم الحضارة اليونانية وعقدت به آمال الاستقلال البربري لولا أن أنهار سلطانه دفعة واحدة سنة 203ق. م.

ت- الإمبراطورية الشرقية:

اغتنم ماسينيسا انهيار ملك سيفاكس وقرطاجنة في الأن الواحد. واظهر الولاء للرومان مخاتلة وكون إمبراطورية في القسم الشرقي من نوميديا والغربي من المملكة التونسية. وجعل عاصمتها قرطة ولعلها قرطة الثانية التي هي مدينة الكاف، وكان رجلا عظيما وضع للبربر حكومتهم وأنشأ اقتصادهم وحرر ثقافتهم فهو شبيه جدا بزيري مناد الصنهاجي الذي صانع الفاطميين حتى أورث أحفاده ملكهم.

ث – إمبراطورية يوغرطة:

إلا أن المرحلة الكبرى في سبيل الاستقلال البربري خطاها يوغورطة بن غايا الذي أعلن الحرب على الرومان وعلم أنهم أمة مبتاعة لمن يريد شراءها بالمال. وأسس إمبراطورية شامخة الذرى وتمسك بالقيم البربرية وأحيى المعالم الوطنية وشنها حربا

ضروسا على الرومان جعلت ملكهم قاب قوسين أو أدنى من الموت. ونحن نتخذ من تاريخ يوغورطه دروسا ثمينة في نزعة البربر نحو توحيد البلاد وإنشاء الدولة وتكوين الإمبراطورية وما أشبه يوغورطة ببديس ويوسف بن تاشفين وعبد المومن بن علي وأبي زكرياء الحفصي لولا الفرق بين الفريقين في حظوظ الحرب وايلولة النصر. فقد تغلب الرومان بالنهاية وانتصروا على القرطاجنيين ويوغورطة معا ووقعت البلاد في قبضتهم وأسسوا نظام ملوك الحماية. فاقطعوا يوبا الأول ثم يوبا الثاني قسما من البلاد على نية استرجاعه من أحفاده فيما بعد عندما ترسخ قدمهم في البلاد. وانصرفت همة يوبا الثاني إلى العلوم والآداب والفنون اليونانية فجعل عاصمته شرشال موطنا للحضارة اليونانية وانقطع إلى تأليف المصنفات والموسوعات. وانتهت الإمبراطورية البربرية ولجأ الرومان إلى الحكم المباشر وسط الثورات المتتابعة إلى أن زال ملكهم وانقطع طغيانهم ودار عسفهم عليهم وجاء ملك الإسلام فوجد فيه البربر مجالا لتجديد الإمبراطورية كما سنرى.

الفصل الرابع

البربر في العصر الإسلامي

البربر منتشرون في النصف الشمالي من قارة افريقيا ويتوزعون على الترتيب التالي:

1 - البربر في مصر:

عندما خرج البربر من جزيرة العرب استوطنوا مصر أولا، ثم استوطنوا المرمريقة، وهي منطقة الحدود المصرية الليبية، وفي عهد الفاطميين انتقل كثير من كتامة، وهو جند الدولة الفاطمية الفاتحون، ومصمودة وصنهاجة إلى مصر فاندمجوا في الشعب المصري وعلاوة عن البربر المندمجين في الشعب توجد في شمال مصر قرية بربرية بحتة تسمى سيوة أو واحة عمون، ومازال أهلها إلى الأن يتكلمون لهجة بربرية بحتة ولهم عادات بربرية واضحة.

2 - البربر في ليبيا:

ليبيا هي الموطن الثاني للبربر وهي التي نشأ فيها بربر لوبو الأولون الذين نسبت إليهم البلاد "لوبيا" وهي بخاصة موطن هوارة القبيلة البربرية الكبرى، وفي العهد الروماني أنجبت سياسيين كبارا أو علماء عظاما، أمثال الإمبراطور سبتيموس

سافاروس. وفي العصر الإسلامي قام البربر بدور أساسي في فتح افريقية. ثم انقلب معظمهم إلى الاباضية وصاروا تابعين لدولة بني رستم بالجزائر لاسيما بربر جبل نفوسة. وفي عهد صنهاجة في القرن الخامس الهجري قامت بطرابلس دولة بني خزوان البربرية.

وينقسم بربر ليبيا اليوم إلى ثلاثة أقسام:

أ – بربر برقة:

وهم قليلو العدد بالمقارنة إلى العرب ومنهم البربر الخاص وأشهرهم سكان اوجيلة وهم مازالوا يتكلمون البربرية، ومنهم البربر المتربعون أمثال سكان جالو والزاوية والفواتر وغيرهم.

ب- بربر الجهات الغربية الصحراوية:

وغالبهم من السمر والسودان وأشهرهم أهل فزان وهم قدماء معروفون ومنهم الطوارق من الأجربيين والاماشاق والتاماهوق الذين هم منحدرون من بربر تاماهو الذين ورد ذكرهم في المعالم الفرعونية المصرية الراجعة إلى الأسرة الثامنة عشر ثم قبائل التبو التي هي زنجية بربرية وهي خط الصلة بين قلب الصحراء والوجه البحري.

ت- بربر الجهات الشمالية:

وأغلبهم سكان جبل نفوسه بنالوت وجادو وسيناون. يبدأ الخط من غدامس شمالا وغات جنوبا ويستمر مشرقا بين الجبال إلى أن ينتهي إلى زوارة على البحر. وكل هذه الجهات بربرية اللغة

وفيها آداب بربريــة كثيرة ة وكتب في الاباضية وطبقات العلماء يحتفظون بهــا. وقد حاول الإيطاليون أن يلعبــوا الورقة البربرية ضــد العرب والكوارغلية والأتراك، ولكن مســاعيهم ذهبت أدراج الريــاح، فقــد وجــدوا أمامهم أمة متحــدة كالبنيــان المرصوص واللغــة البربريــة في الجبل في تناقض بســبب انتشــار التعليم الابتدائي.

3 - البربر في تونس:

إذا استثنينا متبقيات البونقيين الباقية في استتار في بعض واحات الجنوب الشــرقي، وبعض متبقيــات الرومانيين المندمجين فــي الســكان، والجاليــة التركيــة الضاربــة بثغــور الشــواطئ التونســية فإن قرارة الشــعب التونســي متركبة من بربر وعرب على نســبة أصلية بربرية من 27 هـ إلى 444 هـ ثم على نســبة ثلثــين من البربر وثلث من العرب بعد ســنة 444 حينما زحف بنو هلال وبنو ســليم على تونس فحقنوها دما عربيا فتيا جديدا، ثم على نســبة تســاوي أو قريب من التســاوي حينما تعربت أكثرية القبائل البربرية، فالنتيجة الآن هي أن الشعب التونسي يتركب في معظمه مما يأتي:

أ- عناصــر عربيــة أولى من قبائــل الفتح تســكن المدن على الخصوص-وبخاصة القيروان- أو جهات ما تزال تحمل اسم القبائل العربية الأولى مثل قضاعة قرب باحة وبرهة الكاف والقرشــيين فــي الوطن القبلي، والأنصاريين قربــة طبربة، الكلبيين قرب عين الغــلال والأرديين قرب قنطــرة بنزرت، ولكن هــذه الجوالي العربية

الأولى مندمجة في المجتمع غير متميزة.

ب- عناصر قبائلية من هلال وسليم ماتزال موسومة بالصفات القبلية تعيش عيشتها في نظام العروش في جهات بعينها مثل بني زيد والهمامة والمثاليث ودريد ورياح.

ت- عناصر بربرية أصلية قد تعربت وزالت عنها غالب الصفات البربرية مثل أولاد عيار وماجر وأولاد عون.

ث- بربر مسلمون خالصون مخلصون عرب في لغتهم أو مشاركون في لغاتهم بين العربية والبربرية مثل وشتاتة وخمير ونفرة مقعد في الشمال، وورتيتان والفراشيشي في الجهات الغربية وورغمة وغمراسن ومطماطة في الجهات الجنوبية الشرقية.

والذي نلاحظه هو أن البربر يسكنون في الغالب الجهات المنقطعة من جبال وصحاري وجزر لتوالي الغزوات على بلادهم من بونيقيين ورومان ووندال وبيزنطيين وعرب وأسبان وترك وفرنسيين وإيطاليين فتدحرهم الأمم الغازية إلى الجهات المنقطعة وهي:

1 - الجزر:

مثل قرقنة وجربة بالإضافة إلى تونس الحالية: ومالطة وصقلية وسردانية بالإضافة إلى تونس الكبرى فيما سلف، وما تزال بجربة أسماء القبائل البربرية الكبرى مثل الماي أي لماية، وسدويكش ومستارة وآراكو كما ان مالطة منسوبة إلى عائلة مليتة البربرية الكبرى التي نجد بقاياها في مليتة فقرقنة وثلة مليتة بالشمال الغربي التونسي.

2 - الأنهار:

غالب الأنهار التونسية تنسب إلى قبائل بربرية موجودة أو مندثرة مثل مجردة وتاسة وسليانة وفوشانة وزارة ومعظم هذه الأسماء من القبائل التي أوردها ابن خلدون.

3 - الجبال:

مثل وشتاتة وخمير ومقعد ورتنات ورسلات ومطماطة.

وأهل الجبال يسكنون الأكواخ المغطاة بالمقاصب المتوارية في كثيف الغابات بجهات خمير. والقرى العالية الموضوعة كعشوش النسور في قمم الجبال وتسمى القصور في الجهات الجبلية الشمالية الأخرى مثل إقليم معقد وإقليم زغوان. ويسكنون الغرف المنقورة في الصخر في الجنوب الجبلي التونسي.

4 - الواحات:

في الجنوب في الجهات المنبسطة مثل الزارات وتامزرت وتستمر هكذا إلى مدينة غدامس نفسها.

5 - المدن:

والبربر في المدن يؤلفون جاليات متميزة بالسكنى في حارات بعينها. وبالصناعات في مهن بعينها وباللباس في أزياء بعينها. وفي اللغات في لهجات بعينها عربية أو بربرية والجربيون والدويرات وتامزرت والميزابيون والوارقلية لهم أحياء بعينها أو أنهاج بعينها وأسواق بعينها أو وكلأت سكنى بعينها والجربيون يتعاطون التجارة في أقلام معينة ودكاكين معينة وفي أسواق

معينة حسب تقاليد بعينها وإن كان سير الاقتصاد اليوم قد دفعهم إلى استقلال وتحرر متزايدين والدويريات يتعاطون في الغالب الخياطة والحمالة وبيع البقول والثمار هذه الطبقات من البربر بأزيائهم ولهجاتهم العربية والبربرية. غير أن سير العلم والاجتماع قد اخذ يكسر إطارهم الأصلي فنجد البعض منهم يسكن القصور الشامخة وقد ارتقى العلم بعناصر منهم فتكاثر من بينهم المحامون والأطباء والصيادلة والمهندسون والأساتذة ورجال الصحافة والسياسة والعلماء والكتاب والشعراء.

العادات والعقائد:

وللبربر التونسيين عادات وعقائد موروث أخذت تزول على مر الدهور كما أن اللهجات البربرية قد ماتت في جهات كثيرة مثل خمير والوطن القبلي وهي في تناقض ولم تبق إلا بالسند وتامرت وجهات من جربة مع كثرة امتزاجها بالمفردات العربية وقد تعرب البربر وصاروا من زعماء الإسلام وأنصار الآداب العربية فزالت القضية البربرية من تونس منذ قديم.

الدولة البربرية بتونس:

يظهر أن يوغورطه اتخذ عاصمته قرطة التي هي الكاف لا قرطة التي هي قسنطينة على أن سيفاكس اتخذ من الجنوب الشرقي التونسي مملكة جعل عاصمتها صفاقس المنسوبة إليه أو بالأحرى بلدة طينة التي لا تبعد عنها إلا قليلا. وفي عصر الاحتلال الروماني ولي عدد من بربر ليبيا (سبتيموس سافاروس)

ومن بربر تونس (آل غورديانوس وغيرهم) الإمبراطورية الرومانية، وغورديانوس هو الذي بنى قصر الجم (تيسدروس) إكراما لأهل بلدته الذين انتخبوه إمبراطورا على الرومان.

وفي العصر العربي شارك البربر منذ الأول في الفتوحات الإسلامية، ورموا بسهم مصيب في الدولة الأغلبية وقامت دولة الفاطميين على كاهل كتامة، ثم استقلت صنهاجة بالحكم (361-555) وقامت بعدها الدولة الحفصية التي سمت إلى مقام الخلافة وبايعها أهل الجزائر والأندلس والسودان والحجاز.

ومع أن بلاط الفاطميين والصنهاجيين والحفصيين كان يستعمل البربرية فإن غالب الملوك الصنهاجيين والحفصيين كانوا من خطباء العربية وشعرائها.

ويظهر أن المشادات العنيفة بين الولاة والقبائل البربرية العظمى وهجرم الأعراب سنة 444 قد فتتت القبائل البربرية التونسية فانتشرت في البلاد شذرا وزادت تعربا بالنهاية والتحمت العناصر القومية فكونت شعبا ممتزجا عربي النزعة إسلامي الدين عربي الثقافة.

4 - البربر في الجزائر:

لعل مكان التقاء البربر الواردين من شمال أوروبا والبربر الواردين من اليمن عن طريق مصر وليبيا هو وادي شلف الذي يقسم الجزائر نصفين غربي وشرقي وهو ميدان التنازع الكبير على طول الدهر بين مصمودة الغربية وصنهاجة الشرقية، ولعل

الجزائــر أيضا هـي محــل التقاء البربر الليبيين الشــماليين والبربر الصحراويــين الممتزجين بالزنــوج. فنحن نشــاهد بالجزائر طبقات مختلفة من البربر تنقسم إلى الأقسام التالية :

أ- بربر الشمال :

بالجهــات الشــمالية الواقعة على طول السـاحل من القالة شــرقا إلى آرزاو غربا. من جبال وشتاتة وادوغ الجرجرة والونشريس. وغالبهم من كتامة في بلاد القبائل الصغرى. وزواوة الشــمالية الغربية. ويعلم الناس جميعا ماذا كان دور بني يفرن في المنازعات بين دول المغرب ودول الأندلــس. ودور كتامة في مناصرة بني عبيد الفاطميــين المنازعــين للاغالبة في القرن الثالث. وقد اســتطاع هــؤلاء البربر الشــماليون ان يبنــوا دولة كبرى فــي القرن الثالث ثــم الثاني ق.م. فاســس يوبا الأول ثم يوبا الثانــي الكاتب العالم الأديب المتأثر بالحضارة اليونانية دولة موريطانيا القيصرية بمدينة شرشال قرب عاصمة الجزائر اليوم.

كما استطاع سيفاكس أن يبني دولة كبرى بنوميديا جعلها إمبراطورية عظمى.

وفــي أوائــل القــرن الخامــس الهجــري انفصــل فــرع مــن الصنهاجيــين القائمين بالمهدية. فاســس دولة بني حماد الزيرية الصنهاجيــة فــي قلعة بني حمــاد أولا. ثم في بجايــة ثانيا كان لها شــأن سياســي وعلمــي وثقافــي واقتصادي وفنــي عظيم. وفي القرن الســابع الهجري أســس الزيانيون من بني عبد الوادي البربريين الدولــة الزيانية العبدوادية بتلمســان فكانت من أكبر

دول الإسلام شرقا وغربا ودامت إلى الاحتلال التركي في القرن العاشر.

ب- بربر النجاد العليا:

هم البربر المتحررون الذين اقلقوا راحة الفينيقيين. وأوقفوا فتوحات الرومان فبنوا ضدهم سلسلة من الحصون سموها ليمس أي الحد. وخصوصا بربر جبل الأوراس الذين هم شديدو المراس. واضطر الرومان لكي يهنأ لهم بال بالبلاد التونسية أن يتخذوا بحيدرة معسكرا رابط فيه الفيلق الثالث الأوغسطي. ثم يتوالي فتوحاتهم نقلوه بالنهاية إلى لمبيز. وعلم الأغالبة في القرن الثالث الهجرى أن "ممر" تبسة بين الجبال فج يتسرب منه البربر المهاجمون للقيروان فأسسوا معسكرا ببلزمة وضعوا فيه خمسة آلاف من الفرسان القيسيين من العرب بخيولهم العربية. ليكونوا لهم درءة. حتى إذا ما ستصفى زيادة الله الثالث آخر ملوك الاغالبة تلك الفيالق القيسية خلا الجو لبربر كتامة العاملين لحساب الفاطميين فانتصروا على الاغالبة وقضوا على دولتهم.

وغالب بربر النجاد العليا من قبيلة ورقجومة وأكثرهم من الخوارج الذين نازعوا العرب الحكم بعد دخولهم في الإسلام. وطالما استولوا على القيروان واقلقوا بال الولاة إلى أن أسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية. فاسس بنو رستم الدولة الرستمية في مدينة تاهرت بالجزائر وهي أول دولة بربرية بحتة قامت في الإسلام وكان لها شأن عظيم وأخبارها مشهورة.

ت- بربر التخوم الصحراوية:

ومنهم البيض والسمر والوسد. يعيشون في الواحات عيشة قرار ويتصلون بالسودان من ناحية وبالسواحل من ناحية أخرى على وجه الهجرة للعمل أو الترحال لتسيير القوافل التجارية فهم خط الصلة بين قلب الصحراء والوجه البحري. وهم المنظمون للقوافل الصحراوية البحرية منذ عهد الفينيقيين فيتصلون ببرقة وطرابلس شرقا، وبالجزائر وهران شمالا، ويؤسسون مشابك واحاتهم على العيون أو الأودية الظاهرة أوالنقارات التي يحفرونها على العرق الكبير ذلك النهر الباطني العظيم الذي يخترق جنوب الجزائر. وأهم مشابك واحاتهم: وادي سوف ووادي ريغ ووادي ميزاب وورقلة (ورجلان). وقد ألفوا هناك منذ أقدم العصور دويلات مختلفة الشأن لاسيما بعد أن قضى العبيديون على دولة الرستميين. ومن أهم دويلاتهم دويلة بني جلاب بتقرت وغالب مدنهم عواصم للآداب الاباضية بالبربرية أو بالعربية فقد أنجبت ورقلة (ورجلان) علماء كثيرين كما أنجبت ميزاب علماء يشار إليهم بالبنان أشهرهم الشيخ اطفيش رحمه الله. ويمتاز الميزابيون بالمشاركة بين النشاط العلمي والنشاط التجاري في دائرة كبرى من عمان إلى زنجبار إلى مصر إلى أقصى المغرب.

ث- بربر الصحراء

ينتهون إلى بحيرة تشاد ونهر السينغال جنوبا ويرتفعون شمالا في صميم البلاد الجزائرية إلا الهكار وعاصمته قانمراست

عاصمة الطوارق الملثمين أسود الصحراء، وقبائل توات بعين صالح وقبائل الفجيخ وغالبهم يتبعون طرقا معينة أشهرها التجانية وزاويتها الأم بعين ماضي ولهم مدارس وديار كتب وعلم إسلامي منتشر وهم حفظة الدين وناشروه بالصحراء. وبربر الجزائر يشعرون بأنهم عرب عاربة من اليمن ويعتصمون بالإسلام كل الاعتصام ويتمسكون بالعروبة كل التمسك، وامقت شيء لديهم أن ينسبوا إلى البربرية، وقد بنوا بالجزائر دولا إسلامية كبرى أولها دولة بني رستم بطاهرت التي عاصرت الأغالبة في شرق المغرب والأدارسة في غربه؛ ثم دولة بني حماد بقلعة بني حماد أولا وبجاية بعد ذلك. ثم دولة بني زياد أو بني عبد الوادي بمدينة تلمسان وكانت معاصرة للحفصيين.

ومائة وثلاثون عاما من الاحتلال الأجنبي لم تقتل العربية ولا الإسلام ولا حادت بالبربر عن شعورهم الإسلامي وجامعتهم العربية، بل إن أكثر المناصرين للدين واللغة أو من أكثرهم على الأقل هم البربر، وقد انتشرت في صميم بلادهم مدارس جمعية العلماء الفاضلة فلاقت نجاحا مدهشا وصار البربري الصغير يتكلم الفصحى ببلاغة ولا يعرف الدارجة، وفضل جمعية العلماء في هذا الباب لا ينكر بل يذكر فيشكر، وإذا ذكر المؤرخون في يوم غد مزايا الجمعيات الإسلامية مشرقا ومغربا كان فضلها في المقدمة وكتبت لها البطولة في هذا الميدان.

واللغة البربرية في تناقص في الجزائر، وكلما خسرت شوطا كان لفائدة العربية لغة وثقافة، فالجالية الطالبية بتونس ومصر قد تضلعت في العربية وآدابها وخرج منها الأساتذة المبرزون.

والجالية الطالبية على وجه العموم سواء بالزيتونة أو بالقرويين أو بالأزهر أو بعامة الجامعات الشرقية قد استرجعت مكانة الجزائر كبلاد منتجة في حقل الضاد والمعاهد العليا والعربية بالجزائر المنسوبة لجمعية العلماء أو لغيرها قد أحيت التعليم الزيتوني بتأسيسها الفروع الكثيرة واضطرت المدارس الحكومية الثلاث إلى تعديل برامجها.

والملاحظ هو أن البربر في الطليعة من الحركة الجزائرية كيفما اصطبغت وغايتهم عربية إسلامية لا غبار عليها. فلن يجد الوطنيون الجزائريون في يوم غد "مشكلة بربرية" تعثر في طريقهم وتنشر بذور الشقاق بينهم وتبعث بنعرة قد تقلق الحركة وتحد من نشاطها. فالجزائريون قد اجتازوا هذه الأزمة بسلام وبدون كثير خسارة بل بإذكاء لنار العروبة والله الملهم لسواء السبيل.

5 - المغرب الأقصى:

ثلاث قبائل بربرية تتوزع العمران وتتنازع السلطان بالمغرب الأقصى:

أ- المصامدة:

ومصمودة هي أقدم قبيلة بربرية مستقرة بالمغرب. تشغل الأطلس الكبير والسرس والأطلس المضاد. وهي تؤلف أغلبية السكان إلى اليوم ليس فقط بهذه الجهات الجبلية بل أيضا بالسهول الغربية. أما إخوانهم في الجنس بنو غمارة فهم يسكنون الجبال الشمالية أعني ناحية الريف. والمصامدة جميعا

مستقرون لا رحل يسكنون القرى والمدن وقد اجتازت بهم زحفات بربرية أو غربية أو افرنجية، فكانوا في حركة دائمة لفتح الأندلس أو للفتح من الأندلس، وكانوا محل تأثر بالحضارة الأندلسية بسبب من هاجر إلى جهتهم من بلاد الأندلس الغربية وبمن قامت من الدول ذوات الحضارة الممتازة بجهتهم مثل دولة الصدفيين بمدينة سبتة.

ب- الصناهجة:

جاءت صنهاجة إلى المغرب من شرق شمال افريقيا حيث استقر البعض بجبال القبائل منذ قديم مثل زواوة وكتامة وصنهاجة هم الذين فتحوا الصحراء وتخوم السودان وادخلوها في الإسلام.

ويتألف من صنهاجة بالمغرب كتلات كثيفة بالريف على الخصوص وهي هناك قديمة العهد، كما توجد عناصر صنهاجية مبعثرة بالسهول وفي حاشية الجبال حيث استقرت منذ القرون الأولى الإسلامية، وصنهاجة تشغل الجنوب من الأطلس الأوسط والمنطقة الغربية من الصحراء في الشرق والجنوب من الأطلس، وأغلب قبائل صنهاجة من المنتجعين أو من كبار الرحل الصحراويين، غير أنهم يتدافعون رويدا رويدا نحو الشمال ليستقروا هناك.

ت- زناتة:

زناتة هي آخر قبيلة بربرية جاءت ديار المغرب واستقرت بسهول المغرب منذ القرن الثاني والقرن الثالث الهجريين بينما كانوا في

القــرن الأول ومبادي الثانــي مازالوا بطرابلس والجنوب التونســي والنجاد العليا الجزائريــة ثم جاءوا المغرب بمفردهم أولا ثم ممتزجين فــي القــرن الرابع مع العرب مــن بني هلال وبني ســليم. فصاروا يؤلفــون الآن كتلــة كثيفة بشــمال الأطلس المتوســط والمغرب الشرقي والصحراوي وقد امتزجوا بالعرب في الغالب.

والظاهرة الكبــرى في المغرب اليوم هــي أن البربر إثر الظهير البربــري وإثــر محنــة الســلطان وبفاعــل الصحافــة والإذاعــة والاختلاط والمدرســة وســير التقــدم العام قد كســروا إطارهم القبلــي وثاروا على رؤســائهم الجامديــن العاملين بــإذن المراقب الفرنسي وأرادوا الاندماج "الوطني" في عموم الشعب وتشكلوا تشكلا جديدا عماليا ونقابيا ووطنيا سيتولد منه شعب المغرب المتحــد في يوم الغد إلا أنهــم الأن في أزمة نشــأة وطور انتقال ومحاولة إنشــاء جديد طبقي ووطني يتصــور تصورا واضحا في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنقابية.

الممالك البربرية:

ألــف البربر بالمغرب قبل مقدم الفينيقيــين في القرن الثاني عشــر قبل الميلاد ممالك صغرى تحت رئاســة ملوك صغار يسمون اجليد يغارون على اســتقلالهم الفــردي في محيطهم الصغير. ثم اســتولى الفينيقيون على البلاد من القرن الثاني عشــر إلى ســنة 146 وخلال الحروب البونيقية تألفت من المغرب امبراطورية تســمى موريطانيا تولى الحكم فيها ملوك من البربر أشــهرهم بوخورس في القرن الثاني ق. م. الذي ناصر الرومان ضد يوغورطه.

ومنهـم اسـكاليس ومنهم بوغـود، ودخل الرومان المغـرب رويدا رويدا وفي سـنة 25ق. م. ألحقوه بموريطانيا القيصرية أو الشرقية فجعلـوه تابعا لمملكـة يوبا الثاني. ثم تولاه ابنـه بطليموس. ولما ثار على الرومان البربري تاكفاريناس والبربري ايدمون ألحقت رومة المغـرب، وجعل منه الإمبراطـور فلوديـوس موريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة ولـم يتعد الحـد الجنوبي لسـلطان الرومان مدينة الرباط الان بستة كيلوميتر ثم يمر هذا الحد في الجنوب من مكناس وفاس. واهـم المدن بهذا المغرب الذي لم يترامى إلا قليلا هي وليلي ولوبيلس وسلا وبناسا.

الممالك البربرية الإسلامية:

دخل المغرب في الإسلام منذ فتوحات عقبة بن نافع. وسرعان ما تحول ليس فقط إلى مملكة إسـلامية بل إلى عسكر إسلامي متقدم مباشر للغزوات، فتولى فتح الأندلس ثم فرنسا.

ومر المغرب الإسلامي البربري بمرحلتين قبل أن يستتم سيادته، المرحلة الأولى دينية سياسية، فقد انتشر مذهب الخوارج بالمغرب واعتنقه عامة البربر فأسسـوا دويلات للخوارج في جهات كثيرة، وظهرت في الان نفسه نزعة تأسيس " إسلامية بربرية".

فقـد ظهر في قبيلة برغواطـة التي هي من مصمودة والتي هي ضاربة بجهة الشاوية متنبئ يدعى صالح البرغواطي وألف قرآنا بالبربرية دعا إليه الناس فاتبعه من اتبع.

لكن هذه المحاولة "الاستقلالية" حتى في صورة الدين، سرعان ما فشلت وعمت الخوارج وأسسـوا دويلات منها دويلة بني مدرار

في سجلماسة غير أن البربر اجتازوا هذه المرحلة وأسسوا دولة عربية الرأس بربرية الجسم وهي الدولة الادريسية (788م- 924م) وهكذا تم في القرن الثالث الهجري مشروع كبير في كامل شمال افريقيا نستطيع ان نسميه الاستقلال الداخلي بالإضافة (= بالنسبة) إلى الخلافة العباسية وإن كان يزيد عنه بخطوات جزئية فسيحة وتم هذا الاستقلال بإيجاد دول ثلاث عربية الرأس في معظمها بربرية الجسد ودواليب الحكومة فكان بنو إدريس بفاس وبنو رستم بطاهرت وبنو الأغلب بالقيروان. ونستطيع أن نقول إن دواليب الحكومة الأموية بالأندلس وجانبا كثيرا من السكان هم من البربر إلى حد بعيد. غير أن الخطوات الفسيحة الكبرى الطبيعية لم تخطها هذه الدول وهي "خطوة الوحدة المغربية" أو "الدول المتحدة المغربية" وهي لابد منها لأنها هي الظاهرة السياسية المغربية طال الزمان أم قصر وأحب من أحب وكره من كره.

وبالفعل فقد خطا هذه الخطوة الفاطميون لحسابهم الخاص. فتوحد المغرب لأول مرة وأنجز المشروع الذي وقف دونه يوغورطه. بسبب منافسة مزاحمة من بني جلدته.

وكأن الدولة الفاطمية تجربة ليس إلا. وفي النية إحالة الانتقال إلى مصر. وانتقل الفاطميون بالفعل إلى مصر وظهر باديس الصنهاجي الذي أسس مدينة الشير على حدود المغرب وبذل قصارى الجهد وهو العامل الكبير لتوحيد المغرب من جديد فتوفق إلى ذلك حينا من الدهر وأخذ مدينة فاس. وتم له مرغوبه لفترة قليلة من الزمان. ثم مات دون ان يستطيع ترسيخ الوحدة.

وظهـرت في المغـرب دويلات صغيرة مشـاقة، فرجعت صنهاجة علـى زناتـة ودفعت بها إلى المغرب الأقصـى، فظهر به منها بنو يفـرن ومغراوطة وأسسـوا به دويلات بفاس، ثم أسـس بنو يفرن دويلة بسـلا على نهر أبي رقرق، وأسسـت مغراوة دويلات باغمات وتافيلالت، وفي الآن نفسـه ظهرت قبيلة مكناسـة وأسسـت مدينة مكناس، وجاء موسـى بن أبي العافية المكناسـي وأسس دويلـة بفـاس لحسـاب الفاطميين، وكأنما هذه الدويلـة توطئة وتمخـض لتأسـيس الامبراطوريـة الغربيـة الكبـرى فبينما نرى صنهاجة الشـرقية قد تقسـمت إلى بني زيـدى بالمهدية وبني حماد ببيجاية وبنـي حماد بالأندلس وقد ضعفت الدولة لهجوم النرمان على السواحل والأعراب الهلاليين والسليميين بالبراري إذ زحفت صنهاجة الجنوبية من السينغال (وادي الذهب) وأسست دولة الملثمين (1025-1147) التي سادت بالمغرب وفتحت الأندلس من جديد ووحـدت الأندلس ومعظم المغرب طيلة قرن. وكأن لها مذهبها السياسـي الديني المجدد الذي وضعه عبد الله بن ياسين ومذهبهـا وهـو وحدة المغـرب ومذهبهـا الفني المعـروف بالفن المرابطي والذي منه آيات في الأندلس وكامل المغرب.

وما عتـم أن جاء المهدي بن ترمرت بالتعاليم الإصلاحية التي أخذها من حجة الإسـلام الغزالي، فجدد الإسلام البربري وادخل إصلاحا دينيا يعتبر أكبر إصلاح على مدى العصور وأسس الدولة الموحدية البربرية التي هي اكبر دولة للبربر وقد شـملت الأندلس ومراكـش والجزائر وتونـس وطرابلس. فتمت فكـرة توحيد المغرب العربـي وتمت للبربـر إمبراطوريتهم العربية الإسـلامية وتم اكبر

إصلاح ديني إسلامي على يد البربر وظهرت أكبر فنون الإسلام المعروفة بالفن الأندلسي العربي وبالفن الموجن على يد البربر أيضا وعمت المغرب وبحرت

اوروبا وجزءا من امريكا وظهر أكابر فلاسفة الإسلام وشعرائهم وكتابهم في هذا العصر البربري من ابن رشد إلى ابن خلدون.

فبربر المغرب إذا تحركوا للإسلام والعربية ولا سبيل إلى ان تتخذ منهم ذريعة ضد الدين ولغة الضاد. وإن كانوا في جبالهم يتكلمون البربرية الشلحاء إلا أنها في تناقض لفائدة العربية وسوف لا تمر إلا مدة قليلة حتى يخرج منهم في هذا الجيل السياسيون والشعراء والمفكرون والكتاب العلميون وسوف تطغى الآداب المغربية في سنوات قليلة حتى تغمر سوق الشرق وتوجب إعجاب الشرقيين.

6 - البربر في الأندلس:

علاوة عما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن البربر ينتمون إلى أصل واحد مع الايبيريين سكان اسبانيا الأقدميين. فإن جماعات منهم قد ذهبت إلى اسبانيا -وربما استقرت بها- على عهد فتوحات حنبل القرطاجني هناك. كما أن جماعات أخرى انتقلت إلى هناك مع الجيوش الرومانية.

وفتح طارق بن زياد البربري اسبانيا ومعه جيوش من البربر من قبيلة أوربة على الخصوص. واستقدم منهم خلفاء بني أمية جماعات وفيرة وأنزلوهم جنودا لحاميتهم كما فعل ذلك المظهر

بن أبي عامر لقمع ما شاء على عهده من ثورات.

وعندما انفصل فرع من بني زيري وأسس دولة بني حمود الصنهاجية بالأندلس ثارت الخصومة الأبدية بين صنهاجة وزناتة.

وذكر لنا ابن خلدون أهم القبائل البربرية التي حلت بالأندلس وهي متغرة ومديونة ومكناسة وهوارة، وأضاف إلى ذلك ابن حزم قبائل أخرى منها مغيلة وملزوزة وفزة واوربة ومصمودة وكتامة ونجد بربرا من بني رزين في قلعة بني رزين. ومن ولحاسة في بلدة رندة، وبني غزلون في شاطبة، وبني طريف في مدينة سالم، ومعظم من جاء الأندلس من البربر ينسب إلى زناتة منهم بنو الخروبي وبنو الليث وبنو يفرن وبنو برزال وبنو دمر وبنو خزر، وسبب مجيئ الزناتيين يرجع إلى السياسة التي سلكها عبد الرحمان الناصر الأموي من استمالة زناتة المغاربة تمهيدا لفتح بلاد المغرب ابتداء من الأندلس وافتكاكها من الفاطميين. ولمازالت دولة بني أمية محل محلها ملوك الطوائف كان البعض منها من البربر الصرف مثل دولة بني حمود ودولة بني برزال وغيرهما. ثم استولى على الأندلس المرابطون ثم الموحدون. وتركوا هناك أقواما كثيرين من البربر. فلما هاجر المسلمون سنة 1107 هـ خرج العرب والبربر معا، ومن البربر من أم تونس بنفس الاسم مثل قبيلة عوسجة التي بنت مدينة عوسجة وقبيلة ماتلين التي بنت الماتلين وهلم جرا.

وبقي كثير من البربر بالأندلس تنصروا وتاسبنو تدل على

ذلك الكثير من المدن والقرى والجهات الاسبانية البرتغالية، ومن البربر من هاجر إلى اميركا مع الاسبانيين فالتقى بأجداده الأولين المستقرين هناك منذ عصور قديمة، وبقيت بعض مفردات بربرية في اللغة الاسبانية واللغة البرتغالية تتعلق بأسماء النباتات على الأكثر. وبالجملة فقد لعب البربر دورا رئيسيا في تاريخ اسبانيا والبرتغال طيلة عشرة قرون سواء في رئاسة الدول أو رئاسة الحكومات أو السياسة العامة أو ميدان العلم والأدب والفنون. ناهيك بفن المرابطين وفن الموحدين والفن الموجن الذي عم الأندلس وأوروبا الغربية.

7 - البربر في فرنسا وانكلترا:

لقد رفع حنبل القائد البونيقي الكبير جحافل من البربر اخترق بهم اسبانيا (أيبيريا) وفرنسا (غاليا) وزحف بهم على إيطاليا من الشمال. فبقيت منهم جماعة بجنوب فرنسا. وفتح يوليوس قيصر غاليا في جيوش من أجناس مختلفة. فبقيت منهم جماعة بالحلية الوسطى. وزحف عبد الرحمان الغافقي على فرنسا بجيوش عربية وبربرية. فبقي كثير من البربر بين نهر الغارون ونهر لوار وهم هؤلاء الشقر الموجودون بجبال فرنسا. وغزا الأغالبة والفاطميون وادي الرون من الفريجوس إلى سان غوطاء ومعهم البربر فبقيت منهم هنالك جماعة. وهاجر بعض الأندلسيين وفيهم البربر إثر إجلائهم من اسبانيا على عهد فرنسيس الأول. فبقيت جماعة أخرى من البربر هناك إلا أنهم اندمجوا بالسكان ولم يعد تعرفهم ميسورا إلا بأسماء المدن البربرية وبالسحنة البربرية الممتازة، وهذا موضوع جدير بالبحث.

وانتقلت سفن البربر منذ قديم إلى انكلترا فاستبقت هنالك جماعات من البربر نتعرف منهم القيطوليين أو القويطس وهم الجيتوليون المعروفون عند العرب ببني جوالة.

أما بربر إيطاليا وصقلية ومالطة وقوصرة وسردانيا فأمرهم معروف لا يحتاج للذكر.

8 - البربر في بلاد السودان:

رأينا ان البربر والسودانيين من جنس واحد، وعلاوة عن ذلك فإن البربر الأصليين منتشرون أصالة في بلاد السودان، وخصوصا منذ العهد الفينيقي لأنهم كانوا يشتغلون رؤساء قوافل تجارية لجلب خيرات السودان والعبيد، ومنذ الفتح الإسلامي الأول أسلمت قبيلة صنهاجة بفرعيها الشرقي والغربي وتدافعت في موجات متعاقبة واعتنت بإدخال معظم أهله في دين الإسلام، ومازالت مرابطة هناك هي وغيرها من القبائل في بلاد موريطانيا السنيغالية وعلى ضفاف نهر السينغال وبحيرة تشاد، ومن العسير أحيانا في بعض الجهات التمييز بين البربر والسوداني. ولهؤلاء البربر اتصالات متينة مع الطوارق والتبو في جهة الشرق، ومع بربر جنوب المغرب الأقصى غربا، ومن قبائل صنهاجة المغربية خرج محمد بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين، وباعتبار وجود البربر في تلك الجهات فيجب اعتبار هذه الناحية من السودان جزء لا يتجزأ من المغرب وبالتالي من الوحدة المغربية التي تشمل الريف ومراكش والجزائر وتونس وليبيا وهاتيك الجهات.

9 - البربر في جزر الكناري:

هي جملة جزر واقعة في المحيط الأطلسي على مسافة قليلة من الساحل الغربي الإفريقي يسكنها نحو 700.000 ساكن. وسكانها الأقدمون هم الغوانتشوس الذين أصلهم بربري. وانضاف إليها في العصر العربي بربر من بني غمارة (احدى الجزائر تسمى غمارة) وبربر من هوارة (مدينة بالما اليوم تسمى في القديم بني هوارة) وقد استعمرها عرب الأندلس وسموها الخالدات ثم انتزعها النرمان فالهولانديون فالاسبانيون بحيث أن السكان خليط ولكن معظمهم من البربر القدماء والحديثين ويتكلم الغوانتشوش لغة منحرفة عن البربر مع اختلاف يسير بين جزيرة وأخرى - وبقيت منها إلى الآن نقوش صخرية بالحرف اللوبي القديم واللغة اللوبية إلا أن العلماء لم يفسروا هذه المنقوشات ولا اعتنوا بدراستها ولا قابلوا بينها وبين النقوشات الموجودة بشمال افريقيا وأميركا حتى تتبين الفروق والموافقات. وهذا ميدان للبحث فسيح طريف لمن عسى أن يعنى غدا بالمغرب من علماء البربرية والباحثين في حضارات البربر.

10 - البربر في أميركا:

لاشك أن البربر ذهبوا إلى أميركا حينما ذهب إليها أجدادنا القرطاجنيون في بعض الأقوال الراجحة. ولاشك أنهم ذهبوا مع جماعة المغامرين من مسلمي البرتغال الذين كانوا يترددون إليها حسبما شهد به الجغرافيون العرب. ولاشك أنهم ذهبوا إليها مع كريستوفير كولمبوس حينما ساق رواد العرب سفنه إليها.

وليس هذا مانعنيه، وإنما نعني أن البربر ذهبوا إلى اميركا قبائل في عصور سابقة لظهور الفينيقيين أنفسهم أي سابقة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد، فإن التيارات البحرية بين العرب وأميركا كانت تدفع سفن البربر إلى ساحل أميركا وتوجد بأمريكا قبائل كاملة تحمل أسماء بربرية فتوجد قبيلة مطماطس وتوجد هنا قبيلة مطامطة؛ وتوجد قبيلة ماية وتوجد هنا قبيلة لماية كما أن عادات هنود أميركا تشابه عادات البربر. وقد ألف في هذا الموضوع المؤلفون وخاصة الكومندان كوفيه صاحب كتاب البربر في امريكا، فليراجع.

ترى من هذا نطاق انتشار البربر ومبلغ مشاركتهم بتوفيق في كل حضارة قديمة وحديثة، فهم من صفوات الشعوب وخيرة الأمم وهم حريون بأن يؤسسوا مجموعة متحدة من الدول التي لهم فيها أغلبية لحمتها العروبة ودينها الإسلام ولغتها العربية وحضارتها صفوة الحضارات.

الفصل الخامس

الآداب البربرية

أ- اللغة البربرية:

1 - نطاق البربرية:

اللغــة البربرية من أوســع اللغات نطاقا من حيث انتشــارها. يتكلم بها اليوم من أهل مراكش خمسة ملايين. ومن أهل تونس مائــة ألف. ومن أهل الجزائر أربعة ملايــين. ومن أهل مصر بضعة عشرات من الآلاف. وميدانها يبتدئ من المحيط الأطلسي وينتهي إلى البحر المتوسط. ومن مضيق جبل طارق إلى إفريقيا السوداء. ويضاف إلى ذلك سكان جزر الكناري الذين يتكلمون لهجة بربرية خاصة بهم.

ولقــد نطق هذه اللغــة البربر اللوبيون المعاصــرون للفراعنة منــذ 35 قرنا. وتحدث بها أهل برقة القدماء الذين عرفهم اليونان بقريني. وهــي لغة الجيتوليين والنوميديــين والدوريطانيين الذين امتزجــوا بالقرطاجنيــين مــن القرن التاســع إلى القــرن الثاني قبــل الميلاد. وقــد اصطدم بهــم الرومان أكثر مــن اصطدامهم بالقرطاجنيين أنفســهم وفرض هؤلاء الرومان لغتهم اللاتينية

على البربر بواسطة المدرسة والإدارة والكنيسة ودام سلطان الرومان ثمانية قرون. فلما اضمحل كانت البربرية قائمة، وعرف الرومان هذه اللغة البربرية، وميزوا بينها وبين البونيقية، بل عرفوا انها تنقسم منذ ذلك العهد إلى عدة لهجات وحدثونا عما كانوا يلاقونه من مصاعب شائكة في تعلمها ونفورهم من تعاطي دراستها. فقال الكاتب الروماني فلينوس القديم متحدثا عن البربر: "يتعذر على حناجر غير حناجر البربر أن تستطيع النطق بأسماء قبائلهم ومدنهم".

ولما فتح العرب المغرب سنة 27 هـ وجدوا هذه اللغة البربرية منتشرة في الصحاري والجبال والجزر، وفي المدن والقرى تزاحمها في الساحل الشرقي اللغة البونيقية أي اللغة الفينيقية المتأثرة باللهجات والنطوق البربرية.

وبقيت هذه اللغة بعد الإسلام، وبعد إسلام البربر الذي حسن منذ القرن الأول، وعدلت في الغالب عن الخط اللوبي القديم وكتبت بالحرف العربي، كتبت به تصانيفها الدينية الإسلامية، وشعرها وحكاياتها ونوادرها ودرس المسلمون هذه اللغة العجيبة وصنفوا كتبا في المقارنة بينها وبين العربية والعبرانية، وألفوا معاجم لها وللعربية معا، واعتنى أصحاب المعاجم النباتية من الغافقي إلى ابن الجزار إلى ابن البيطار بإيراد التسميات البربرية للنباتات التي يصفونها، وبقيت هذه اللغة لغة البلاط في الأسر المالكة البربرية من صنهاجيين وحفصيين وحماديين وزنانيين ومرابطين وموحدين، بل كان غيرهم من ملوك المغرب يعرفها، فإن المعز لدين الله الفاطمي كان يتكلم بها

مع زعماء صنهاجة وكتامة واستعملها عبد الله الشيعي في دعوته للفاطميين بجبال القبائل وزواوة. كما استعملها المهدي بن تومرت في دعوته بين العروش والعشائر البربرية وبنى بعض الملوك الحفصيين جامعا ولم يكتب عليه اسمه. فقيل له في ذلك. فأجاب بالبربرية "يسنت ربي" أي قد علم الله ذلك. ودخلت مفردات بربرية في اللهجات العربية بالمغرب والأندلس وصقلية منها "الكرومة" و"الفكرون" وغيرها. وهي "لغة اصطلاحية في بعض الحرف مثل لغة عمال الحمامات أو لغة خضاري الزناتيين وهي من أول اللغات التي كان يسمعها الطفل الصغير عند الأسر الكريمة بتونس فإن "داداه" بربرية من قبيلة "الدويرات" غالبا فنحدثه بالبربرية فننشأ عليها. هي لغة السر في بعض العائلات الناطقة بالضاد. ومن منا لم يسمع إخواننا المغاربة أو الوارقليين أو الميزابيين أو الزواويين أو الدويرات يتحدثون بلهجتهم البربرية الخاصة بهم.

ولما غزا الفرنسيون إفريقيا الشمالية حاولوا أن يتخذوا من هذه اللغة نحوا وآدابا لمنافسة العربية فألفوا كتب النحو في مختلف اللهجات وصنفوا المعاجم البربرية الفرنسية ووضعوا مجاميع النوادر والقصص. ونقلوا الحرف العربي الذي كان ومازال يكتب به البربر إلى الحرف اللاتيني كل ذلك ليهربوا بالبربر عن العرب.

غير أن النزعة العامة هي تناقص البربرية في كل ميدان فهي تتحول في كثير من الجهات من لغة منفردة إلى لغة مشاركة مع العربية. ومن لغة عامة إلى لغة خاصة بالمهنة أو

العائلة، ومن لغة عائلية إلى لغة نساء أو لغة سر وتناقصها يشمل في الآن الواحد ميدان الانتشار النسقي ووضع الشخص الناطق. فما بالعهد من قدم وفي عصور تاريخية قريبة منا كان أهل حمير يتكلمون البربرية، فعدلوا عنها إلى العربية ولم يبق في لسانهم من مفرداتها التي انفردوا بها الا كلمة "مش" بمعنى القط.

ولم يعد أهل السند بجهة قفصة يتكلمون البربرية إلا بعض الشيوخ منهم أو النساء العجائز.

وسبب تناقص البربرية هو انتشار التعليم ولو بشكله المنقوص، وتوفر طرق المواصلات التي لم تبق اية جهة معزولة عن بقية الجهات، وتنوع مطالب المعاش ومعارف الحياة التي احتاجت إلى مصطلح لغوي لا تتسع له البربرية، وانبثاث الإذاعة العربية التي غزت المنازل والمحيط النسائي وتسلطنت على المواضيع والألسنة وتشتت القبائل البربرية التي تحطم إطارها واندمجت أو على الأقل اختلطت بالقبائل العربية، وذلك منذ العهد الأغلبي وخصوصا منذ زحفة الأعراب الهلاليين الذين كسروا بتونس -على الأقل - الرابطة البربرية واندسوا في الجزائر والمغرب بين الطبقات البربرية ففككوا أوصالها، ولا ينبغي إن ننسى الدور الذي قامت به الطرق -وبقطع النظر عن كل اعتبار آخر- في تعريب البربر وتمكنهم في الإسلام ثم إن نزعة الانتساب إلى الشرف المنبثة في كثير من الأسر الكبيرة البربرية تحملهم طبعا على اطراح لهجاتهم البربرية جيلا بعد جيل.

وبعد فما هو أصل هذه اللغة البربرية التي بلغت من العمر 35 قرنا وعاشرت جميع دول المغرب وقد استعرضنا مراحل تاريخها؟

2 - أصل اللغة البربرية:

اللغات عائلات ثلاث:

السامية والحامية والهندية الأوروبية، فالسامية هي البونيقية والعبرانية والسريانية والعربية، والحامية هي المصرية القديمة والقبطية والسودانية، والهندية الأوروبية هي اليونانية واللاتينية ولغات أوروبا الحديثة.

ومع أن البربر عاشروا البونيقيين والرومان واليونان والعرب وتعلموا لغاتهم وكتبوا فيها وصاروا احيانا من أقطابها، وقد دخلت مفردات كثيرة من تلك اللغات في اللسان البربري فليست البربرية منتسبة إلى أية لغة من تلك اللغات بشكلها الحاضر.

والحقيقة هي أن للبربر لغة سامية أولى Protosemitique أي في عهد قديم جدا تولدت منه فيما بعد اللغات السامية واللغات الحامية، أو أن البربرية -باصطلاح آخر يرجع إلى الاصطلاح الأول- هي لغة سامية حامية، ولهذا نجد لها قرابة متينة بالمصرية الفرعونية والقبطية من ناحية، وباللغات الحبشية والسودانية من ناحية اخرى، فقرابتها باليمنية القديمة ليست مستبعدة بهذا الاعتبار، وقرابتها من العربية في أصل المنشأ صار أمرا محققا.

والمفروغ منه على كل حال هو أن البربرية لغة سامية حامية

أي لغة سامية أولى.

وأول من اكتشف هذا هو دوناش بن قرش القيرواني في القرن الثالث للهجرة ورجع إليه علماء هذا العصر بعد طول تيه وكثرة تطواف.

وبعد هذا التحقيق فلا بأس من استعراض بعض النظريات في الموضوع:

أ- البربرية والباشفانسية:

الباشفانس (باسك) شعب قليل العدد من متبقيات السلت يسكن الشمال الغربي من اسبانيا والجنوب الغربي من فرنسا. وقد اتصل به العرب والبربر خلال فتوحاتهم بفرنسا والأندلس وهناك النظرية الضعيفة المردودة القائلة إن البربر والباشفنس كلاهما من السلت قدماء سكان أوروبا وأجداد الغاليين سكان فرنسا القدماء، والايبيريين سكان اسبانيا القدماء. فذهب بعض العلماء يبحثون عن وحدة الأصل بين البربرية والباشفنسية وأشهرهم شارانسي الفرنسي، وقابلانتز وشوخارت الألمانيان. والنتائج التي وصلوا إليها هزيلة جدا.

ب- البربرية واليونانية القديمة:

المسماة لغة تركية وبيلاج ذهب الفرنسي برلكون إلى أن البربرية أخت لليونانية القديمة، وإذا كنا نجد مفردات كثيرة من أصل يوناني في اللغة البربرية فما ذلك إلا من تأثر البربر بالحضارة اليونانية منذ عصر البونيقيين وبخاصة في عهد الاستقلال البربري وولوع الملك يوبا الثاني بالآداب والفنون اليونانية ولا

ينبغي أن ننسى أن البيزنطيين -وهم يونان- سادوا بلاد البربر طيلة قرن قبل الفتح العربي - فليس ما قاله برلكون بحجة على وجه الإطلاق.

ت- البربرية السودانية:

بحث بعض العلماء عن الصلات بين البربرية والسودانية وخصوصا لغة الحواسة. ومن المعلوم أن الحواسية والمصرية القديمة لهما صلات متينة فنرجع بذلك إلى قضيتنا الأولى وهي اللمحة الموجودة بين المصرية القديمة من ناحية والحواسة من ناحية أخرى والبربرية من ناحية ثالثة.

ث- البربرية والمصرية القديمة:

هذه هي نظرية الفرنسي دوشمونتاكس وهي وجيهة وقد صارت الآن الراجحة. ويوجد إلى جانب هذه النظريات نظريات أخرى أكثر افتراضا منها.

جـ- البربرية والايترورية:

(اترسك) وهي لغة إيطاليا قديمة قبل الرومان. وقد ذهب إليها برينتون ولكنها بعيدة الاحتمال.

حـ- البربرية والطورانية:

اي اللغة التركية القديمة وقد ذهب إليها الفرنسي رين. وهي بعيدة الاحتمال جدا.

و - البربرية والكندية:

أي لغة شمال أميركا قبل اكتشاف كولومبوس. وهي لغة

قبائل الهورون والعليوت أي القبائل الهندانية أو الهنود الحمر. وهذا له وجه إذا صحت النظرية التي تقول إن البربر اكتشفوا أميركا في عصور متقادمة.

ومهما يكن فإن النظرية الراجحة هي أن البربرية لغة سامية أولى أو سامية حامية وكلاهما بمعنى واحد. ولا يحل الشكل بصفة نهائية إلا إذا درست اليمنية القديمة وقيض الله من علماء المسلمين من يتخصص في اليمنية القديمة والمصرية القديمة والبربرية في الآن الواحد.

الخط البربري :

اقتبس البربر منذ قديم خطا بحروف صائتة منفصلة وضعوا بعضه من تلقاء أنفسهم واستنبطوا بعضه الأخر من الحرف الحميري ومن الخط المصري القديم. ويعرف هذا الخط بالخط اللوبي. وهو يوجد منقوشا على الصخور بالجهات الصحراوية وعلى مشاهد القبور في غرب تونس وشرق قسنطينة وبجزائر الكناري. ومازال يكتب به الطوارق الملثمون ويسمونه تافيناغ. ويظهر لنا أنه تعطل منذ القرن الثاني للهجرة عطله الخوارج وقلبوه إلى الخط العربي مع استنباط حروف زائدة في لغة البربر. ووضع الفرنسيون للخط البربري حرفا لاتينيا فلم يفلحوا.

اللهجات البربرية:

تنقسم البربرية إلى لغة قديمة وهي اللوبية ولاتوجد بها إلا المنقوشات الصخرية. وإلى البربرية الوسطى وهي من القرن الثالث الهجرى إلى السابع ويوجد بها كتاب المدونة في الفقه

الاباضي لابن غانم ويوجد بها قاموس بربري عربي بجزيرة جربة. والبربرية الحديثة وهي نحو الثلاثين لهجة بين شمالية وجنوبية يوجد منها بمصر لهجة واحة. هي سيوة المعروفة بواحة عمون وهذه اللهجات منتشرة بليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان وجزر الكناري.

هذه اللهجات تحتاج إلى دراسات يتولاها ابناء البلاد بنزاهة وأسلوب علمي بحت. وهذا حقل من حقول العمل في عهد الاستقلال إن شاء الله تعالى. حتى تثري العربية وتصير مرجعا عالميا لهذه البحوث وتتبين ملامح الانتاج البربري بصورة جلية.

ب- الأدب البربري:

1 - خصائصه:

الأدب البربري هو مجموع ما صنف في البربرية كتابة من تصانيف دينية أو مجاميع قانونية أو أشعار أو قصص. أو ما تناقله الناس مشافهة من أشعار ونوادر وأمثال وحكم فالأدب البربري كتابي وشفاهي وهذان النوعان ينقسمان بدورهما إلى أدب جاهلي أو سابق للإسلام. وأدب إسلامي.

أ- الأدب الجاهلي:

والمقصود به الأدب الذي ازدهر في العصر البربري الأول. ثم البونيقي. ثم عصر الاستقلال البربري. ثم العصر الروماني فالواندالي فالبيزنطي.

والبارزان من هذه العصور هما: العصر البربري الأول السابق

للاحتلال الفينيقي أي الممتد من القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن الثاني عشر ق.م. يوم حل الفينيقيون بسواحل افريقيا الشمالية. والحقيقة هي أن هذا الأدب مفترض الوجود فلم يبلغنا منه في الواقع أي أثر إذا استثنينا النقوش الصخرية التي هي في الغالب صور لا توجد بها كتابة إلا في قلة. حتى إذا وجدت فحروف ليس إلا ولا مزيد.

ثم عصر الاستقلال البربري: في القرن الثاني قبل الميلاد يوم تطاحن القرطاجنيون والرومان في الحروب البونيقة الثلاث فاغتنم البربر هذه الفرصة لإعلان إمبراطورياتهم وإنشاء مؤسساتهم القومية ومن ضمنها الأدب الوطني غير أن الملاحظ هو أن هذا الأدب الوطني لابد أن يكون قد كتب في بعضه على الأقل باللغة الأدبية القديمة. لكن ما وصلنا منه مكتوب باليونانية عند البعض مثل الملك البربري العالم والفنان يوبا الثاني. أو مكتوب بالبونيقية عند البعض الأخر. مثل تصانيف الملك البربرى هيامبسال. ولم تبلغنا منه إلا منقوشات أضرحة لا تفيد كثيرا.

ب- الادب الإسلامي:

هو أدب البربر الكتابي والشفاهي الذي ابتدع في العصور الإسلامية من القرن الأول للهجرة إلى الآن أي انتاج 14 قرنا وهذا الأدب ينقسم إلى أدب البربر الذي ألفوه بالعربية في مواضيع إسلامية أو عربية عامة. وتصانيف عبد الله بن أبي زيد النفري أو ابن غرفة الورغمي أو الونشريسي. أو شعر تميم بن العز

الصنهاجي وابي زكرياء الحفصي. فهذا كثير لا يتسع له نطاق بحثنا.

ثم أدب البربر الذين ألفوا بالبربرية. أو بالعربية لكن في مواضيع خاصة بالبربر كالتواريخ والأنساب البربرية أو الفقه الاباضي البربري. أو الشعر أو القصص والنوادر المستقاة من صميم الحياة البربرية.

أ- الفقه:

الفقه الإسلامي مجموعة العبادات والمعاملات المستخرجة أصولها من القرآن والحديث والقياس والإجماع وهو إما فقه بحت. أو نوازل أي قضايا قديمة قياسية اتباعية صادرة في صور شاذة ونادرة وعجمية فتقاس عليها القضايا الجديدة مثيلاتها أو المشبهة بمثيلاتها. وهذا يسمى بالفرنسية Jurisprudence أو عُرف ويسمى أيضا العمل ويسمى عند البربر أما مالكي ومؤلفوه داخلون ضمن عموم المؤلفين المغاربة أو الأندلسيين أو الصقليين. فلا نفردهم بالدراسة ويشذ عنهم بربر المغرب أو "القبائل" بالجزائر الذين هم مالكية أصالة إلا أنهم يطبقون في معاملاتهم الخاصة بهم "قوانين الجماعات" أي "عمل أهل الجبل" أو العرف البربري.

وأما ان الفقه البربري اباضي. والاباضية لا يوجدون في مراكش. وهم في الجزائر أهل شبكة ميزات على الخصوص وفي تونس الوهبيون من جزيرة جربة. وفي ليبيا جبل نفوسه وأهل مدينة زوارة.

وحديثنا في هذه الدراسة هو عن أدب القوانين عند البربر المالكية أو عن أدب الفقه الاباضي. وبصفة عامة عما ألف البربر من كتب دينية ابتداء من دخولهم الإسلام فنقول:

أولا: البربر والقرآن:

دخل القرآن الكريم مع الإسلام بلاد البربر يوم فتح العرب المغرب. فدهش البربر من بلاغة الكتاب المقدس. وسحرتهم أحكامه وفتنتهم مباديه الأخلاقية السامية والتعاملية العادلة وبهرتهم تعاليمه الحنيفية وانتشر القرآن بينهم منذ النصف الأول من القرن الأول بواسطة "الكتاب" تلك المؤسسة البسيطة العظيمة التي هي معهد نشر الإسلام ورواج العربية. وعلى رأس القرن أرسل عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي عشرة من الفقهاء بتخريج أهل افريقية والمغرب في اللغة والدين وتكون منذ ذلك العهد "المؤدب البربري" الذي حل محله "الكوهن البونيقي" و"الماجستر الروماني" واستقر بالجبل أو الصحراء. في الضيعة أو القرية أو المدينة يعلم ابناء البربر اللغة والأخلاق والدين بواسطة القرآن وسرعان ما صار أبناء البربر يذهبون إلى مصر والمدينة والكوفة لفهم معاني القرآن ورواية الحديث كما كان أجدادهم يذهبون إلى جامعة قرطاجنة أو جامعة دومية أو جامعة أثينا أو الإسكندرية للتضلع في آداب الرومان واليونان. وهكذا صار القرآن كتاب البربر ووقف البربر من هذا الكتاب مواقف ثلاثة:

الموقف الأول: وقفه معظم البربر. فحافظوا على القرآن

بالعربيـة وفسـروه فيما بينهـم بالبربرية أولا ثـم بالعربية بعد ذلك.

الموقف الثانـي: وقفه بعض البربر، فنقلـوا القرآن إلى اللغة البربريـة، مثلما نقله الفرس إلى الفارسـية والترك إلى التركي. وتقـول بعـض المصـادر أن المهـدي بـن تومـرت زعيـم الموحدين والمصلح الإسـلامي الأكبر الذي اخذ تعاليمه عن حجة الإسلام الغزالـي، قد نقل القرآن إلى البربريـة ليفهمه عنه جماعته من البربـر المصامدة، ولعل الناقلين لهـذه الرواية هم خصوم المهدي وقصدهـم من ذلـك توريطه والحط من قدره في نظر المسـلمين ولعله -وهذا الأرجح - قد نقل القرآن لمصمودة مشـافهة وفسره لهم بالبربرية ليفهموه ويتبعوه.

ويقـال أن طالبين مـن طلبة البربر قد نقـلا القرآن في القرن الماضي إلـى البربرية فقتلا من أجل ذلك، ومهما يكن فإن قضية نقـل القرآن إلى البربريـة قضية غامضة لم يرسـل عليها بعد مـا يوضحها مـن أنوار البحوث. ولعلها دسيسـة مـن المتبربرين الفرنسيين ومستقبل البحث كشاف.

الموقـف الثالث: وهذا موقف فردي وهو موقف بعض المتنبئين مـن البربر أو المتعصبين لخلق وطنية بربرية ضيقة وإيجاد إسـلام بربـري بحـت، ففي سـنة 127 هجرية ظهـر متنبئ فـي قبيلة برغواطة البربرية الضاربة بالمغرب على سواحل المحيط الأطلسي بجهة مدينة سـلا. فادعى هذا المتنبئ المسمى صالح بن طريف البرغراطـي أنـه جاء بإسـلام جديد خـاص بالبربر وصنـف قرآنا

باللغة البربرية نقل أبو عبيد البكري بعض فصوله الثمانين وقد بقي هذا القرآن سريا. ثم جهر به وانتشر بين بعض أهل تلمسان طيلة قرون حتى قضى عليه الموحدون في القرن السادس.

وفي سنة 313 هجرية ظهر متنبئ آخر في قبيلة بني غمارة بالريف يدعى حميما وألف هو الآخر قرآنا بالبربرية دعا إليه قريته. ولكن لم تدم فتنة حميم إلا قليلا حتى قضي عليه قضاء مبرما.

وكون محاولة تأليف قرآن بربري لم تتجاوز شخصين وكونها قتلت في البيضة كما يقولون فإن دلت على شيء فإنما تدل على تمسك البربر بالكتاب الكريم واغلب حملته ومروجيه من سكان شمال إفريقيا منهم. بل قد ظهر منهم بعض المفسرين الكبار مثل ابن عرفة الورغمي وعبد الرحمان الثعالبي وغيرهما كثيرون.

النثر البربري:

النثر البربري عامة إذا استثنينا كتب الفقه البربرية مثل المدونة لابن غانم وبحر الدموع. أو المفسرة بالبربرية -وهي كثيرة- لا يتألف إلا من مجموعات شفاهية لم تدون بالكتابة إلا في عصور أخيرة ولغايات سياسية أكثر منها علمية. وهذا الأدب الشفاهي يتكون في الغالب من قصص وخرافات تنقسم إلى:

1 - حكايات العجائب والغرائب:

وهي اما ذات صبغة سحرية أو ذات أصل أدبي ولها أشخاصها المشهورون بها وأصولها فينيقية ورومانية وفي الأغلب الغالب

عربيــة، ومردها فـي الأكثــر إلـى ألف ليلة وليلة مــع زيادات بربرية ولابد أن يكـون هنالك أصل بربري ملحمـي أو غير ملحمـي قد ضاع خلال العصور واندمج فـي العناصر الأخرى.

2 - النوادر:

وهـــي مقطعات مضحكــة للفكاهة أو للعظــة أو للتربية الأخلاقيــة والاجتماعية. بطل هذه النــوادر هو جحا قطعا ونوادر جحــا المجلوبــة من ايــران والهنــد دخلت البــلاد فـي القــرن الرابع على عهد الفاطميين وانتشــرت عند جميع أمم البحر المتوســط. فهنالــك جحا البربــري كما هنالك جحا المالطــي أو الايطالي أو البلغــاري. وأول ذكر لجحا قد ورد فـي الفهرســت لابن النديم. لكننا نجد نــوادر جحا حتى فـي الحيوان للجاحظ ممــا يدل على ان هنالك أصلا اشوريا (= عاشوريا) قديما نقله الملاحون البونيقيون إلى بلاد المغــرب فانظم إلى مترجمات جحا عن الإيرانية والهندية مما ذكر ابن النديم.

3 - قصص على ألسنة الحيوانات:

وهــذا كثيــر في الآداب الشــعبية فــلا حاجة للتبســط فيه فعــلاوة عن القصصيــة الحيوانيــة البربرية القديمــة التي اوردها الكاتــب البربري أبوليــوس (في العهــد الرومانــي) وأخذها عنه لافونتــين الفرنســي، توجد مقتبســات مــن كليلــة ودمنة ومن لقمان وغير ذلك.

4 - القصص التاريخية:

توجــد عنــد البربر قصــص تاريخية وملاحم حماســية منها

التاريخي بالمعنى الخاص ومنها الديني المشـوب بالتاريخ كقصة المهـدي ومنها مناقـب الأولياء التي هـي بـين الترجمة والكرامة والنـوع الاغرابي. هذه كنـوز ثرية عجيبة فلماذا لـم يخرج منها البربـر ملحمة كبـرى مثل الصاغا عند الايسـلانديين أو الالياذة عنـد اليونان أو "الانبيـذة" عند الرومـان أو العنترية عند العرب؟ هذا هو محك السؤال.

الشعر البربري:

يوجد الشـعر عند ثلاث فرق من البربر وهم الطوارق الملثمون والقبائل وبربر المغرب الأقصى. والشـعر اما تعبدي وإما أناشـيد ايقاعية للمسـاعدة علـى العمل. وتعقد عنـد المغاربة مجالس شـعر مع أناشـيد وتلاحين. وأشـهر شـعراء المغرب هـم اليزلان بالأطلس الأوسـط. والشـعر عنـد القبائل كان حماسـيا يمجد مغامرات القبيلة أو القرية ويروي بطولة أبطالها. وعند الاحتلال الفرنسي صار يمجد الأبطال الذين استشهدوا في الجهاد ثم صار بعد الاحتلال محتشـما لا يزيد عن غراميات شـخصية ليسـت بذات شأن كبير.

والأدب البربري صالح لتكوين مسـرحيات ذات صبغة شعبية صميمة ونزعة تاريخية واضحـة. وهو صالح لتكوين أدب أطفال وطنـي لا نحتاج فيه إلى النقل عـن الأجانب وهو صالح لتغذية الأدب بعناصر جديدة طريفة وأحاديث ممتعة وأشـعار مسـتمدة. فمتـى يا تـرى يخرج مـن البربر باحثـون وناقلون يجعلـون الأدب البربري المترجـم والمقتبس والمهذب والمجدد عنصرا حيا من عناصر

الأدب العربي، ومتى نترجم جميع ما كتب الفرنسيون في الموضوع حتى لا نبقى مستعمرين ثقافيا على وجه الدهر.

الفصل السادس

الفن البربري

عموميات:

الفن البربري أصيل مبتكر، وكان يبقى أصيلا مبتكرا لو أنه لم يتأثر -من حسن الحظ أو من سوء الحظ - بفنون الأمم المختلفة ذوات الحضارات الراقية التي تعاقبت على البلاد، إلا أن نبوغ البربري منحصر في كونه يستطيع أن يقتبس صفوة الحضارات وأن يستسيغها وأن يضمها إلى بعضها في باقة حضرية ممتازة يفرغها في قالب خاص به ويموهها بمسحة وطنية بحتة تذهب عنها أثر العجمة وأن يطبعها بميسمه الخاص فتزول عنها كل متبقيات الصبغة الأجنبية.

والفن البربري ثلاثة أقسام:

1 - الفن المعماري، 2- الفنون المستظرفة، 3- الفن الأدبي.

1 - الفن المعماري:

الفن المعماري البربري في أصله يتلخص في القلعة والمدفن الهرمي. فالقلعة هي قضية المدينة أو القرية ومقر

حكومتها ومجمع معابدها ومدخر اقواتها ومحفل اجتماعاتها ومفاوضاتها. فهي في الآن الواحد حصن وقصر حكومة ومعبد ومختزن وساحة شعبية. ومهما تطور تاريخ البربر وجدنا القلعة في المقدمة اصيلة ومتطورة في الأن الواحد. فهي "البورسة" عند البونيقيين و"الكاستروم" عند الرومان و"الرباط" عند الأغالبة، و"القصر" عند الفاطميين، و"القصبة" عند الموحدين أي بناء هرمي مقطوع تولدت منه "صومعة" القيروان و"صومعة" صفاقس فكلتاهما في الحقيقة حصن مصغر مشتمل على كامل خصائصه وما الأذان إلا جزء منه حتى إذا جاء الموحدون وابتدعوا الفن المعماري الموحدي تمتعت خطوط الصومعة بمزيد الحرية والاستقلال والرشاقة والانبراء فصارت مكعبا مستطيلا وتحررت من قيود الشكل الهرمي المقطوع.

والمدفن الهرمي بربري أصيل تولد منه الهرم المصري وانتشر انتشارا كبيرا في عهد الاستقلال البربري من عصر غولاء وماسينيسا فما بعد. ونجده في قبر كليب بمسبوح وفي منضدة بوغرطة بقلعة الضم وفي قبر الرومية قسنطينة إلى غير ذلك.

وبقي الفن المعماري البربري منحصرا في قيود رومانية في عصر الاحتلال الروماني. إلا أنه أخذ حريته منذ عصر الولاة فبنى صومعة القيروان ثم صومعة صفاقس وتم استقلاله في عصر صنهاجة فكون التاج الصنهاجي المكلل للعموم وابتدع الزليج الفسيفسائي أي الجامع بين صيغة الزليج الذي هو خزف مطلي وصيغة الفسيفساء التي هي ترصيع لأشكال معينة من نجم

وسقف وطوير ليل والوان معينة تؤلف في تراكيب لاحد لها. وابتكرت صنهاجة فرش الارضية بالزجاج المختم بالفضة والذهب. وفي العصر الحفصي جاء قاسم الزليجي الصنهاجي وابتكر الزليج المزخرف على البارز بأنواع الزخارف الهندسية والنباتية والحيوانية والخطية المدهشة.

ثم إن الفن البربري تطور في العهود الإسلامية فأعطانا الفن الصنهاجي الصحراوي الذي نجده بجوامع البلاد السوداء، وأعطانا الفن المرابطي ثم الفن الموحدي بالمغرب والأندلس وسرعان ما استقل عن الفن المشرقي في أجزائه من نوع القوس المهموزة والمنفوخة المشرفة وقوس الجب. ومن نوع العمود والتاج والقبة والصومعة، ومن نوع كساء الزليج والنقش العربي والخط الكوفي والنسخيين المغربيين ومن نوع سقوف الدمس والخشب المحزم والمحلى بالصور والمشاهد الفاتنة. وفي كلياته من عموم شكل القصور والجوامع والرباطات واسوار المدن.

ثم اعطانا الفن المدجن الذي نشأ بالأندلس ثم عم المعمار الإسلامي بالمغرب في العصور التركية. والمعمار النصراني بأوروبا في عصر نهضتنا. ثم المعمار الأميركي بعد اكتشاف القارة الجديدة.

فأية قوة في هذا الفن البربري الذي عم الدنيا في عصر انحطاطه. وماذا عسى أن يكون مستقبلة الوطني والعالمي في يوم غد؟

2 - الفنون المستظرفة:

وهي الموسيقى والرقص والتمثيل والنحت والتصوير.

أ- الموسيقى:

الموسيقى متصلة اتصالا وثيقا من حيث الأصل المتحد أو المجاورة بالموسيقى الصينية والهندية في الشرق، والموسيقى السودانية في الغرب، والموسيقى الجزرية الايجية في الجهات الجزرية التي يسكنها البربر مثل جربة وقرقنة، وهذه الموسيقى تمتاز أولا بأنها إيقاعية تعتمد على ضرب الكف والقرع والنقر، فهي رقصية مرقصة أصالة، وجملتها الموسيقية قصيرة طبعا وسلم نبراتها لا يتجاوز الخمس فلا يصل النبرات الثماني الكلاسيكية ويستعيض عنها بالطفرة أو "النزرة" البربرية التي جعلت لتغطية المسافة السلمية الفارغة أو بالسواكت الايقاعية أو المقحمات الصائتة مثل "يالالان" في المألوف الأندلسي، و"المذيلات" التي تمتاز بها الطبوع المغربية، وتأثرت هذه الموسيقى خلال العصور بالموسيقى البونيقية التي هي سامية الأصل، وبالموسيقى اليونانية حينما أسس يوبا الثاني معهدا للموسيقى بمدينة شرشال وألف موسوعة موسيقية كبرى، وبالموسيقى الرومانية لاسيما بعد إحداث المعهد الموسيقى الملحق بجامعة قرطاجنة وإحداث "اوديون" للاستماع في كل بلدة من المغرب وانشاء المباريات الموسيقية ذات الجوائز الكبرى، ولما جاء العرب جاء الحداء فأخذه البربر ارباب القوافل ولاسيما الطوارق، وجاء زرياب إلى القيروان ومونس البغدادي إلى المهدية

فانتشر الغناء العربي. وزحف الاعراب من صعيد مصر فتفتت القبائل البربرية وتعربت فزالت الموسيقى البربرية من تونس وبقيت في جهات بعينها من الجزائر والمغرب من جبال وصحاري. وجاء بن ابي الصلت من الأندلس فعلم أهل افريقية الموسيقى الأندلسية المبنية على الموشح والزجل والقائمة على الونبة بأجزائها الإيقاعية والاستحثائية والاستبطائية بالخلاف والتوسع في الجملة الموسيقية. ثم سقطت اشبيلية عاصمة الفن فانتقل أهلها إلى شمال افريقيا بفنهم. ثم سقطت غرناطة ثم تمت الهجرة النهائية سنة 1017 على عهد عثمان داي. فعمت الموسيقى الأندلسية مدن المغرب وانضمت إليها البشارف التركية. وانحصرت الموسيقى البربرية في الجبال والصحاري مع تأثر ظاهر وتتمثل لنا الموسيقى الرقصية الجامعة التمثيلية في الأحيدوس والأحواش والموسيقى الإنشادية عند قبائل أزمور في المغرب وزواوة في الجزائر.

ب- الرقص:

الرقص البربري ممتاز. يختص بكونه جماعي مثل الآحيدوس والأحواش. وبكونه متحرك صفيا أو استداريا وبكونه التوائي من أسفل إلى أعلى مثل حركات الأفعى. وقد درس دراسات كثيرة لا عيب فيها إلا أنه ليست بالعربية.

ت- التمثيل:

التمثيل قديم عند البربر جاؤوا به من الهند وأسس له يوبا الثاني معهدا لتدريسه بشرشال وألف فيه التصانيف.

والتمثيل البربري اما ديني على الطريقة الهندية واليونانية القديمة فهو أناشيد ورقص وحركات وتصاوير تمثيلية لاسترضاء الإلهة أو إبعاد غضبهم، أو خزعبلات مضحكة للسخرية من بعض الشخصيات البارزة وإظهار عيوب الناس المنتقدة. وشارك البربر في التمثيل اليوناني ثم الروماني لاسيما وقد نبغ منهم طيرستيوس القرطاجني أكبر مسرحي باللغة الرومانية، وقد بنى ابن جلدتهم غورديانوس مسرح الجم وهو من أكبر المسارح الرومانية، والمسارح منبثة في شمال افريقيا يدل على ولوع البربر بالفن المسرحي.

ث- النحت:

البربر مولعون بالنحت منذ قديم، وطبيعي أن ينحتوا فقد كانوا عباد أصنام فنحتوا أصنامهم، ثم عبدوا القياصرة فنحتوا قياصرهم، ثم تنصروا، والتماثيل من عناصر الطقوس النصرانية، ونحن نشاهد كثرة فاحشة من التماثيل وعامة المنحوتات في الآثار والمتاحف، وإذا خفيت هذه النزعة في صور الإسلام فانها نبهت على عهد الفاطميين، والأزميل البربري من أبدع الازاميل في النحت الرائع البديع لاسيما بعد أن أسس يويا الثاني مدرسة للنحت بشرشال وزين قصوره ومعاهده بالمنحوتات.

جـ- التصوير:

بدأ التصوير على الصخور منذ عهود متقادمة وهو تصوير خطي ورسومي، والرسوم تمثل الحيوانات والأشخاص فرادى أو جماعات أو في مواكب صيد والتخطيط صادقة والملامح واضحة

إلا أن النسبة مختلفة. وقد يبلغ فن التصوير البربري من دقة الجزئية ما يوجب العجب. واستمر البربر على التصوير فوق بيض النعام والعظام والمحار والصوف والخزف وغالب التصاوير شائكة لإبعاد العين فأكثروا من السمك والجمال والسنابل والطيور. وأكثروا من الزخارف الهندسية الشائكة مثل الصليب والمعين.

وبان تصويرهم بارعا فوق الزيتيات الجدارية وفي الفسيفساء وأرقى تصويرهم في العهد الصنهاجي على الخصوص حيث مازلنا نشاهد سقف البالاتينا بمدينة بالرم بصقلية. وهو من روائع الفن الصنهاجي.

ورأينا أن يدرس الفن البربري بمزيد الدقة وأن يحاكيه فنانونا المعاصرون الذين يبحثون عن أنفسهم ويدخلهم العجب المضحك لأنهم صاروا يقلدون نوعا ما الفن الأوروبي.

الفصل السابع

الوحدة البربرية

نذكر جيدا أننا كنا حضرنا في شتاء 1937 بحثا مستفيضا ألقاه الأستاذ ماسينيوس بمعهد الكوليج دي فرانس وجعل موضوعه وعنوانه "الوحدة البربرية" أو "الجامعة البربرية" Le panberberisme.

ما هي الوحدة البربرية هذه؟ هي أولا وبالذات نزعة سياسية موهومة ظاهرها رحمة وباطنها عذاب.. أو بالاحرى إنها كلمة حق أريد بها باطل. فقد كانت الوحدة البربرية حقا واقعا عندما أسس ماسينيسا وسيفاكس ويوغورطه وغيرهم من ملوك البربر إمبراطورية بربرية متحدة في القرن الثاني قبل الميلاد واغتنموا لذلك فرصة الحروب البونيقية القائمة بين القرطاجنيين والرومان.

ولقد كانت الوحدة البربرية حقا واقعا عندما أسس العاهل بلكين بن زيري الصنهاجي إمبراطورية بربرية ضمت الجزائر وتونس وطرابلس وكادت تضم المغرب الأقصى بعد ما فتحت فاس، وضمت فعلا جزءا من الأندلس.

وكانت الوحدة البربرية حقا واقعا حينما أمس المرابطون إمبراطورية بربرية وحدت الأندلس وإفريقيا الشمالية قاطبة.

وكانت الوحدة البربرية حقا واقعا حينما أسس الموحدون الوحدة المغربية من جبال البرانس في الأندلس إلى تخوم مصر وأقاموا فيها دار الخلافة الموحدية ثم الحفصية.

هذه هي الوحدة البربرية الحقة الواقعية. وأما الوحدة التي يرمي إليها ماسينيوس واضراب م. ماسينيوس - أو على الأقل - التي كان يرمي إليها. فقد رجع من بعيد. فهي وحدة باطلة ضالة مضلة.

وبعد فما هي الوحدة البربرية في نظر ماسينيوس؟ روج الباحثون الفرنسيون في الأذهان أن البربر من الجنس السلتي أو الكلتي والسلت جنس هندي أوروبي قد سكن أوروبا الغربية في عصور متقادمة قبل الميلاد فمنه الولش سكان انجلترا القدماء والبلج سكان بلجيكا القدماء والغاليون سكان فرنسا القدماء والايبيريون سكان اسبانيا القدماء.

وهذه النظرية التي تريد أن تجعل البربر من السلت ترمي إلى أن تجعلهم طبعا من الغاليين. أي أنهم يتحدون جنسا مع قدماء الفرنسيين. وإذا اتحدوا معهم جنسا من القديم فقد تعين أن يتحدوا مع الفرنسيين جنسا في الحاضر: فتلك بضاعتنا ردت إلينا: فالغاليون سلت. والبربر غاليون والغاليون فرنسيون. والبربر غاليون. فالبربر فرنسيون وهكذا: فبواسطة قضية منطقية شكلية مركبة من كبريين وصغريين نصل إلى

نتيجة واحدة مقررة هي أن البربر فرنسيون من ناحية الجنس وقد بقي أن نجعلهم فرنسا فرنسيين من ناحية اللغة والثقافة وهذا أمر بسيط تكفلت به المدرسة الفرنسية التي لا عربية فيها. وبقي أن نجعلهم فرنسيين حضارة وهذا أمر تكلفت به الدعاية العلمية المرتبة التي ترمي إلى إسقاط القيم الإسلامية والعربية وإحلال القيم الفرنسية مكانها في الروحيات والأدبيات والماديات: فالمدنية العربية قديمة، والمدنية الفرنسية حديثة، الثقافة العربية قديمة والثقافة الفرنسية حديثة، والأكل العربي قديم والأكل الفرنسي حديث، فيكفي أن ننفر الناس من القديم ونحشرهم إلى الحديث حشر الأنعام ليبعدوا عن الحضارة العربية ويرتموا في أحضان الثقافة الفرنسية: وبقي ان نجعلهم فرنسيين دينا وهذا أمر تكفل به المبشرون. فهذه العمليات بسيطة في ذاتها -على الكاغد على الأقل- و لا عيب فيها إلا أنها ليست بسيطة فقط بل ساذجة أيضا، أي درويشية على أصح عبارة فكانت النتيجة معكوسة طبعا. نعم سيدي ومعكوسة على خط مستقيم، فليس فقط لم يتفرنس البربر ولم "يتغلوا" ولم "يتسلتوا" بل زادوا عروبة على عروبيتهم وإسلاما على إسلامهم، بل كان زعماء الإسلام والعروبة في الجزائر مثلا من صميم البربر أمثال فرحات عباس ومصالي الحاج وعبد الحميد بن باديس الصنهاجي.

وكانت النتيجة معكوسة لأمر بسيط جدا هو أن المقدمة التي انبنت عليها النتيجة هي أيضا معكوسة فمن الطبيعي والبديهي ان تعكس النتيجة وفاقها.

فقد كان أصحاب النظرية في بساطة عقولهم وسذاجة تفكيرهم واستسهال مرماهم يبنون قبة فوق حبة ويتخذون من البعوضة جملا. ويجعلون من رغائبهم واقعيات ومن أوهامهم حقائق ومن أحلامهم عالما شهوديا.

لقد مرت هذه القضية باطوار وخلفت أبطالا من الأنصار والخصوم وأسالت بحارا من الموارد واستغرقت قناطر مقنطرة من الورق وأثارت زوابع من الحماس وانتهت كذيل السمك في مهزلة مضحكة مبكية!

بدأت "القضية البربرية" في منتصف القرن الماضي يوم كانت السياسة الفرنسية المتعبة بالجزائر يتعاورها عاملان. العامل الأول نزعة الملوكية الفرنسية من نابليون الأول إلى نابليون الثالث في ايجاد "امبراطورية عربية" فقد حاول نابليون الأول إنشاءها في مصر والشام. وحاولت الحكومة الملوكية الفرنسية انشاءها بالجزائر وتاليفها من العنصرين البربري والعربي الملتحمين في الواقع. واما العامل الثاني فهو نزعة الإدماج أي فرنسة الجزائر والسعي إلى إدخالها في حظيرة النصرانية. وبالاخارة انتصرت النزعة الثانية لاسيما بعد حرب السبعين وانتصاب الجمهورية الثالثة فهب هانوتو يثبت ان البربر غير العرب وأن البربرية لغة قائمة بذاتها مستقلة في متن لغتها وأسرار تراكيبها ودورات دواليبها وأن لها أدبا حربيا بكل تمجيد ينبغي جمعه لبعثه وتنشيطه لتغلبيه. وهبت إدارة التعليم إلى إيجاد مدارس عربية للعرب ومدارس بربرية للبربر. وهبت مقالات الصحف تمجد البربر وتنفخ في نار النعرة البربرية وتنقيص العرب ومؤسسات العرب.

وهب الباحثون المغرضون يدرسون المؤسسات البربرية ويبنون دعائم حضارة بربرية ليحاولوا من ورائها إيجاد وطنية بربرية ضد العرب أولا وضد الإسلام ثانيا، وهبت الحكومة تقسم لتسود فتؤلف المناطق البربرية على حدة والمناطق العربية على حدة، وهبت المدارس المدرسة العليا الجزائرية تؤسس شهادات اللغة والآداب البربرية، وتنشر كتب النحو ومجاميع النوادر والقصص البربرية، ولكن هذه الموجة الجارفة الطاغية لم تهز حماس البربر ولم تستفز الا ابتسامة العرب.

وفي أوائل القرن ظهرت "القضية البربرية" بتونس أيضا، فهب الطبيبان شانتر ونيرتولون يؤلفان تصنيفا ضخما جدا في مقاييس جماجم البربر وأنها مفاطحة أو مستطيلة، وتوصيف أصباغ شعورهم وألوان عيونهم وأطوال جسومهم مع المقارنة بين جميع ذلك وبين مقاييس جماجم الغاليين وتوصيف أصباغ شعورهم وألوان عيونهم ومعرفة أطوالهم، فتبين بعد طول البحث وبسط أعمق النظريات -التي من شدة ظهورها الخفاء- أن الشعبين هما بحمد الله أشبه من الماء بالماء وأنهما من أرومة واحدة ما في ذلك من شك وأن العرب قد تدخلوا

بغزواتهم الوحشية ففرقوا قوانين شعبين خلقهما الله للألفة والاتحاد، وأما الآن وقد زال سلطان العرب فلم يبق على الشعبين إلا أن يتآلفا من جديد فصرنا نسمع أولادنا يكررون ملء حناجرهم في مدارسنا "أباؤنا الغاليون " "كان أجدادنا يسمون في القديم الغاليين وكانت بلادنا تسمى غاليا" كلنا كررنا هذه العبارات مرارا وتكرار في غير إيمان كبير مع جانب غير قليل من

الاندهاش.

وتكون في بعض المدارس معلمة فرنسية طيبة القلب زكية النفس فترى البنيات المسلمات بتقاريطن وقباقبهن وهن يسردن "كان أجدادنا من الغاليين وكانت بلادنا في القديم تسمى" بنفس النفس الذي يسردن به "جعجونه! جعجعونه!" فتغرورق عيناها دموعا من الوجد وتحمد الله كثيرا في السر والعلانية على أن هؤلاء البنيات هن حفيدات فرنسا يخوريكس الغالي ما في ذلك من مراء.!

واعتقد مديرو المعارف "التسعة" الذين تعاقبوا على الإدارة، اعتقدوا اعتقادا راسخا أنهم قاموا بمهمتهم أحسن قيام لان ابناء المدارس من التونسيين قالوا "أجدادنا الغاليون وبلادنا في القديم تسمى غاليا".

وفيما يخصني أنا (وأعوذ بالله من كلمة أنا كما ورد إذ كلمة أنا مقيتة كما قال بسكال) فقد كنت اتعجب جدا عندما كنت صغيرا من أن غاليا هي بلادنا فانا اعرف أن غاليا هي جزء من بلادنا. فلماذا هذا التعميم يا ترى؟ وغاليا الاخيرة هذه هي ناحية بتونس فيها مباقل ومروج فكنت أذهب بميعة أبي رحمة الله تعالى لأكل منها الخس والبسباس وأتساءل في ضميري الباطن وطي عقدي لماذا غاليا الصغيرة هذه قد أصبحت في مدرستنا كل المملكة التونسية. وللمدارس يرمئذ في تعليمها وتعاليمها أسرار.

ودخلت الاذاعة التونسية سنة 1938كرئيس للقسم العربي

وكان عندنا في القسم الفرنسي أحد أساتذة معهد كارنو يسمى يحي عمروش وهو قبائلي فكان مختصها بإذاعة عن الموسيقى القبائلية تنشد أخته المغني، وينشد هو المعنى، وكان في الحسبان أن هذه الإذاعة ستحدث انقلابا في ذهنية البربر فتحولهم بين عشية وضحاها إلى غاليين أو أنصاف غاليين على الأقل (وعبدكم يقنع بالربع من ذلك اذا تيسر) ولكن لم يكن من ذلك شيء حتى أن يعتبر على الأقل طرفة فنية وتحفة غنائية.

وقبيل ذلك بقليل اصدر العلامة الألماني الدكتور لاخمان دراسة علمية عن الموسيقى بالمغرب اثبت فيها ان الأنغام البربرية قد اضمحلت من هذه الربوع منذ أجيال فبقول من نأخذ ياترى؟

وقبيل الحرب الأولى بقليل زحف الايطاليون على طرابلس وسلكوا هناك أيضا "السياحة البربرية" التي ترمي في الظاهر إلى إرجاع السيادة إلى البربر وتطهير البلاد من العرب "المغتصبين" وشمر الباحثون الايطاليون عن ساعد الجد يدرسون اللهجات البربرية والآداب البربرية والعقائد البربرية والحضارات البربرية، وبثوا بذور الشقاق بين العنصرين على قاعدة فرق تسد، فلم يجنوا من ذلك طائلا بل كان زعماء المقاومة من البربر كثيرين نخص بالذكر منهم المجاهد العالم الأديب الفقيه الالمعي الشيخ سليمان الباروني وناهيك.

وأسس الفرنسيون بالمغرب الاقصى "معهد البحوث العليا المغربية" وخصصوه في البحوث البربرية ونشروا لذلك

"هسيريس" وطفقوا يصنعون عن لهجات البربر وآدابهم ونفسيتهم وأخلاقهم وعاداتهم ومعتقداهم التصانيف المطولة وتخرجت طائفة من " المتبريرين" اى المختصين في البحوث البربرية وعاشت في الجبال مع القبائل في عقر ديارها. وكانت نتيجة ذلك ان قال لنا بعض أصدقائنا الذي كان مترجما في الجيش هناك: "... وعندما ندخل القرية النائية في أعالي الجبل البعيدة عن كل تأثير عربي نجد اسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم قد سبقتنا بدهر إلى أحقر الأكوام"!

وهذه الظاهرة القوية الدلالة لم تمنع صدور الظهير البربري المعروف الذي قام له العالم الإسلامي وقعد ولم تمنع التجربة البربرية ضد جلالة سلطان المغرب وحوادثها الاليمة لم تزل عالقة بالاذهان.

نريد أن نفهم هنا ما هو سبب اخفاق "الوحدة البربرية" كما كان يريدها م. سينيوس الذى رجع من بعيد؟ لذلك في نظرنا أسباب كثيرة سنحاول بيان البعض منها:

أما أولا فإن أصحاب النظرية قرروا الأمر ونقيضه فهم من جهة يقررون الإمبراطورية البربرية والوحدة البربرية والسيادة البربرية. ومن اخرى يقرورن أن البربر عاجزون عن تكوين إمبراطورية وقصاراهم أن يؤسسوا جامعة صغيرة. في قرية حقيرة أي أصغر وحدة حكومية.

أما الوحدة الحكومية الكبرى التي هي الإمبراطورية فهداهم عنه عاجزون ولا تسمح به "العقلية البربرية" التي هي "عقلية

انفرادية"؟!

وفي تناقض واضح بحيث أن النظريتين تتطاحنان وتبيدان أحداهما الاخرى فنخرج من الموضوع بصفر.

وأما ثانيا فإن الرومان جعلوا من البربر قياصرة مثل سبتموس سافاروس وغورديانوس والعرب جعلوا منهم قادة فتح وخلفاء إسلام وأما الفرنسيون فلم يفسحوا في وجوه البربر المجال حتى يطمعوهم بالفكرة الإمبراطورية.

وأما ثالثا فإن الإسلام والعربية حائلان دون كل اندماج مع العناصر الخارجية.

ولا تكون "الجامعة البربرية" الأن أو غدا إلا كما كانت بالأمس. مثلما بناها بلكين وباديس ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وأبي زكرياء الحفصي. أي وحدة إسلامية عربية بقيادة زعيم من البربر إذا شئت.

والرأي النهائي الذي نختم به الدراسة هو أن البربر من أهم عناصر الإسلام دينا وثقافة وفنا وسياسة وزعامة وتفكيرا.

فإمبراطورية الغد تتألف من اتحاد الدول المغربية البربرية العربية. ومن الجامعة العربية ومن الجامعة الايرانية الطورانية الهندية. تكللها جميعا الجامعة الإسلامية التي يترأسها خليفة منتخب. ولا مانع أن يتزعم البربر من ناحية أخرى وحدة القارة الإفريقية وما ذلك على همتهم بعزيز. والحمد لله أولا وأخرا.

